

الوصف الجميل للمحافظة على العقائد الإسلامية

تأليف

مؤلفه الجليل السيد حسين افندي الجسر الطرابلسي

عني بمقابلة أصوله، وتصحيحه

رضوانه محمد رضوانه

من نوى العلم بالأزهر

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بمن المكتبة الجارية النسخة بأول شارع محمد علي بمصر
لها مبعها : مصطفى محمد

طبعة تحت إشراف

بالمرغش رقم ٢٥

لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تَأْلِيفُ

الدُّعَاةِ الْمَجْلِيلِ السَّيِّدِ عَبْدِ الْقُدْرِيِّ الْجَبْرِ الطَّرَابُلْسِيِّ

عَنِ بِمُقَابَلَةِ أَصُولِهِ ، وَتَصْحِيحِهِ



١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْبَحَارِيَّةِ الشَّيْخِيَّةِ بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِمِصْرَ
لِصَاحِبِهَا ، مَعْطًى مَحْتَمَةً

مكتبة الامانة بقم

بالحرقش رقم ٢٥

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد : أشرف
 المرسلين ، وعلى آله ، وصحبه ، أجمعين
 «أما بعد» فيقول الفقير الحقير الراجي من الله غفران الوزر عبده
 حسين بن محمد الجسر الطرابلسي « عفا الله عنه » : انه من المعلوم
 المسلم عند كل مطلع على تاريخ الأئمة المحمدية أن إيمان أهل الاسلام،
 بجميع ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان في عصره « عصر
 السعادة » مستنداً للقرآن الشريف ، وحديث الرسول الشريف، مؤيداً
 بأدلة العقل السليم ، الناهج في المنهج القويم ، خالصة من شوائب الشبه
 والاهواء ، سليمة من غوائل الاغاليط واختلاف الآراء ، فالأئمة
 كانت ثمراته يانعة ، وزواهره ساطعة ، فكانت ترى أفراد الأئمة
 محافظين على إقامة العبادات، وانتظام شأن المعاملات، متمسكين بالأوامر،
 منتهين عن المناكر، متحايين بأخلاق الدين الحسنة، آداب المستحسنه،
 لأنه : متى طاب الأصل طابت الفروع ، وعديبة الماء ، عن
 صفاء ينبوع

وقد دام ذلك في المسلمين، وجماعة المبرحين ، إلى أن أتمر أحد
 الخلفاء ، بـ حسين بقرجته كتب الهدايا لغيره من الأئمة الفريدين .

وانتشرت تلك التراجم بين الأمة الإسلامية ، ونشأ من الاطلاع عليها شبه : زعزعت ايمان ضعفاء المسلمين ، ومن ليس عندهم تمكن في معرفة اصول دين سيد المرسلين ، فانبرى عند ذلك علماء الأمة الحمديدية وأتمتها الاعلام ، المتمسكون بما كان عليه المصطفى وأصحابه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام : يردون القلوب الشوارد ، ويدفعون تلك الشبه بما يرغم أنف كل معاند ، حتى رأيت كتبهم مزودة بالدلائل القطعية ، على إثبات العقائد الدينية ، وصاعدة بردود الشبه التي كانت على الضعفاء أعظم بلية ، فحفظ الله تعالى بصيهم ايمان الأمة من الغوائل ، وحصنه من صدمات الشبه بأقوى الدلائل وقد استمر الحال على هذا المنوال ، الى أن ظهرت في هذه المصور الأخيرة الفلسفة الحديثة ، التي خالف فيها أربابها طريقة أسلافهم الفلاسفة المتقدمين ، واعتمدوا في ذلك أصولا في الرياضيات والطبيعات لم تكن تعرف قبل هذا الحين ، وانتشرت هذه الفلسفة بواسطة المطبوعات بين أهل الاسلام ، ونشأت عنها شبه لم تكن معروفة في غابر الاعوام ، وسار كل عاقل يخشى على إيمان الضعفاء من غوائل هذه شبه الجديدة ، فتجدد الاحتياج الى اسشاف الردود السديدة ، وتأليف كتب في حفظ الايمان مفيدة

ولما من الله تعالى على أهل هذا العصر بخليفة رفعت لجهته
ألوية الشرف والفخر ، ونشرت لحفرتة رايات العز والنصر ، وسب

في اصلاح الرعية سيرا عجيبا ، وسلك في نجاح البرايا سلوكا غريبا ،
 وقام على أقدام الاقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الانام ،
 وصرف ما وقفه لنفع الخاص والعام ، وبسط بساط السلام لكافة
 تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته ، ألا وهو ثاني
 القمرين ، ومحبي سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغراء ، ورافع
 لواء المحجة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس
 من آثار سالف الامم ، الخليفة الاعظم ، والحقان الانجم ، السلطان
 ابن السلطان السلطان الغازي «عبد الحميد» خان ابن السلطان الغازي
 عبد الحميد خان نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين
 بانفتح المبين أعلامه ، وجه عنايته - حفظه الله تعالى - الى أحوال العلوم
 والمعارف ، وألفت الطرف الى شؤون الفضائل والموارف ، فرآها
 بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطلب إحياءها بلحمة من أنظار دولته ،
 فرثي لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبي شكواها ، فشد
 لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس
 التفائس ، وساق اليها المعلمين من أقطار الارض ، وأمر بإحياء دارسها
 واطاعة أمره فرض وأي فرض ؟ فقرى فيها من العلوم والفنون
 ما يسر القلب المحزون ، ولم تزل المعارف تنشر في البلاد - وتتضاعف
 ثمراتها وترداد ، حتى استنفذت شبان الرعية من ظلمات الجهل ،

ونورت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد علت بذلك همتهم ،
وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم .

الا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التي نقلت اليها على متون
المطبوعات ، من غوائل الشبهات ، قد يخشى منه زيغ عقائد شبان
ضعفاء الامة ووقعهم في الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالي ،
والموافق لرأى جلالته السامى ، تأليف كتاب مختصر يشتمل على
تقرير العقائد الاسلامية يبرهنها العقلية ، ويتكفل بدفع تلك الشبه
التي حدثت من الفلسفة الجديدة وسواها من الاغاليط المضرة
بالعقيدة ، مع بيان ايقضى يجلب قلوب شبان المسلمين لمحبة الدين
المبين ، والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين ، صلوات الله
وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، أجمعين ، عسى أن تعم قراءته في جميع
المكاتب السلطانية ، والمدارس الشاهانية ، محافظة على عقائد تلامذتها
من أهل الملة الاسلامية ، والشريعة المحمدية ، فوفقت لهذه الخدمة
الشريفة التي ينتج عنها ان شاء الله تعالى . بانظار خليفة رسول الله الخير
العظيم لعموم الامة الاسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكرته
— حفظه الله — وغرة من غرر عصره الحميدى السعيد المؤيد بتوفيق
الله تعالى

فجاء كتابا يسر قلوب المؤمنين ، ويقر أعين الموحدين ، مشتملا
على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، كل باب منها يشتمل على فصول : تحتوى

على ما تمس الحاجة اليه من مهمات الاصول ، وعلى خاصة : تشمل على بيان وجوب الخلافة في الدين المحمدي المبين ، وما لها من حقوق الاطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى « المحصون الحميدة » ، للمحافظة على العقائد الاسلامية ^(١) ، فتوصل الى الله تعالى بروحانية حبيبه الاعظم - صلى الله تعالى عليه وسلم - أن يؤيد عرش الخلافة العظمى بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الاعظم ، ويحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المكين ، والفتح المبين ، اللهم آمين

(١) في الاصول المطبوعة مانعه : لمحافظة العقائد الاسلامية . واللغة العربية نظر لهذا شذرا ولعل نسخة المؤلف وافق ما اخبرناه فاحفظه ولا نكن أسير التقليد

المقدمة

وهي تشتمل على أربعة أبحاث

البحث الأول

في تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله ،
وافترض تعلمه على كل مكلف

إعلم أن علم التوحيد هو : علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية
بالأدلة اليقينية . وثمرته هي : معرفة صفات الله تعالى ، ورسله بالبراهين
القطعية والفوز بالسعادة الأبدية . وهو أصل العلوم الدينية وأفضلها ،
لكونه متعلقا بذات الله تعالى ، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام
وشرف العلوم بشرف العلوم . وقد جاءت به جميع الرسل عليهم
الصلاة والسلام من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل
الصلاة والتسليم ، ولكن لما كان الشيخ أبو منصور الماتريدي ،
والشيخ أبو الحسن الأشعري : أشهر من دون كتب هذا العلم ، وأقام
الأدلة والبراهين على رد ما قاله المخالفون : شاع أنهما الواضعان له ،
ويقتضى تعلمه على كل مكلف : من ذكر وأنثى — ولو بأدلة
إجمالية . وأما معرفة أدلته التفصيلية فهي فرض كفاية إذا قام بها

بعض الامة سقط الطلب عن الباقيين ، والصحيح : أن من قلد غيره
في العقائد الدينية بأن يمتدحها اعتقادا جازما لا يقبل الشك والتردد
يكون إيمانه صحيحا ، ولكنه يكون آثما بترك النظر في الاحتمال ، ان
كان قادرا على ذلك والا فلا ، وإنما سمي هذا العلم علم التوحيد لأن
أشهر مباحثه البحث عن توحيد الله تعالى ، وهو أساس الدين

البحث الثاني

في بيان حقيقة الايمان ، وحقيقة الاسلام

إعلم أن الايمان الذي كلف الله تعالى به عباده ، وجعل جزاءه
دخول الجنة ، والنجاة من النار هو : تصديق سيدنا محمد رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم فيما علم بحجته به بالضرورة أى اعتقاد صدقه
عليه الصلاة والسلام اعتقادا جازما فيما جاء به عن الله تعالى ، وعلم
بحجته به يقينا مع الاذعان القلبي لذلك : وذلك مثل الايمان بالله تعالى ،
وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ،
وافترض الصلاة ، وبقية العبادات الاسلامية : من الزكاة ، والصيام ،
والحج على المستطيع ، وتحريم قتل النفس المعصومة ظلما ، والزنا ،
وأمثال ذلك

والاسلام : هو الخضوع والانقياد باطنا وظاهرا لما جاء به
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم بحجته به بالضرورة أى علم
بحجته به يقينا . فكل من الايمان والاسلام المنجيين : لا ينقات عن الآخر

فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق ذلك التصديق
لرسول عليه السلام لا بد أن يكون خاضعا لما جاء به عليه السلام ،
والخاضع هذا الخضوع لا بد أن يكون مصدقا ذلك التصديق . ثم
ان النطق بالشهادتين — وهما : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا
رسول الله — قد جعل شرطا لازما لاجراء الاحكام الدنيوية على
المؤمن : من نحو مناهجته ، والصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه
في مقابر المسلمين . فاذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من
النطق بهما بأن مات عقب ما آمن بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما
بعد الايمان بقلبه أيضا ، فهو مؤمن عند الله تعالى ، وناج في الآخرة ،
لكن من امتنع عن النطق بهما عنادا بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر
والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبي الذي يحصل منه ، لأن
هذا الامتناع قد جعله الشرع منافيا للايمان ، وحكم بكفر صاحبه

البحث الثالث

في بيان ما اعتبره الشرع منافيا للايمان ، ومبطلا له والعياذ بالله تعالى
إعلم أن الشرع السريفي نهى وحذر عن الامور المنافية للايمان ،
وحكم بكفر من يرتكبها وان كان مصدقا بقلبه ، ومنقادا لما جاء به
الرسول عليه الصلاة والسلام : وذلك مثل السجود للصنم اختيارا ،
أو الاستهانة بما عظمه الدين . كالقرآن السريفي ، وحديث الرسول

المنيف ، والشريعة المطهرة ، ورسول الله الكرام ، وأسمائه العظيمة ، وصفاته الكريمة ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ، كالصلاة ، والحج ، أو الشتم لوحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ؛ أو نحو ذلك ؛ فإن هذا وأمثاله يتنافى الإيمان ، ويحكم على مرتكبه بالكفر والخذلان ، وكذلك إذا كذب الإنسان شيئاً من النصوص الشرعية الثابت ورودها عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقيناً : كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة عنه عليه السلام أى التى نقلها الجماعة الكثيرون الذين يؤمن توافقهم على الكذب ، أو استحل حراماً ثبتت حرمة فى الشرع قطعاً ، وظهرت حكمة قبحه ، كقتل النفس المصومة ، والزنا ، وأمثال ذلك ؛ فإن ذلك الإنسان يكون قد أخل بالتصديق الإيماني ، والانقياد الإسلامى ، وأتى بما يبطلهما ، ويحكم عليه شرعاً بالكفر ، وعلى كل من كفر - والعاذ بالله تعالى - أن يبادر لتجديد إيمانه وإسلامه ، ويتوب مما ارتكبه ، وإلا : فيستحق القتل فى الدنيا ، والخلود فى النار فى الآخرة ، فمؤذ بالله تعالى وبه نتصم

البحث الرابع

فى أحكام العقل الثلاثة : وهى الوجوب ، والاستحالة ، والجواز
إعلم أنه لما كان الإيمان بالله تعالى - على ما سيأتى - هو :
معرفة ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز فى حقه سبحانه .

وكذلك الايمان ببقية ما يجب الايمان به : من نحو الرسل ، والملائكة .
لزم أن نبين معنى الوجوب ، والاستحالة ، والجواز العقلية التي انحصرت
بها أحكام العقل ، وليس له حكم سواها : فنقول : —

أما الوجوب العقلي فهو : عدم قبول الانتفاء ، والشيء الذي
لا يقبل الانتفاء يقال له الواجب العقلي . مثاله : كون الواحد نصف
الاثنين ، ووجود خالق العالم ؛ فكون الواحد نصف الاثنين واجب
عقلي ، ووجود خالق العالم واجب عقلي : لا يقبلان الانتفاء والعدم ،
لكن الأول واجب عقلي بديهى لا يحتاج الى دليل ، والثانى واجب
عقلي نظرى يحتاج الى دليل

وأما الاستحالة ، فهي : عدم قبول الثبوت ، والشيء الذى لا
يقبل الثبوت يقال له المستحيل العقلي ، ويسمى محالاً أيضاً . مثاله :
كون الثلاثة نصف العشرة ، ووجود شريك لخالق العالم ؛ فكون
الثلاثة نصف العشرة مستحيل عقلي ، ووجود شريك لخالق العالم
مستحيل ومحال عقلي ، لكن الأول مستحيل عقلي بديهى لا يحتاج
الى دليل والثانى مستحيل عقلي نظرى يحتاج الى دليل

وأما الجواز . فهو : قبول الثبوت والانتفاء ، والشيء الذى يقبل
الثبوت والانتفاء يقال له الجائز العقلي ، مثاله سفر زيد ، أو قلب الحجر
ذهبا بقدرة الله تعالى ، فسفر زيد جائز عقلي ، وقلب الحجر ذهباً بقدرة
الله تعالى جائز عقلي ، لكن الأول جائز عقلي بديهى لا يحتاج الى دليل

ويسمى عاديا أيضا بمعنى أنه يحصل وقوعه في العادة ولا تستغربه العقول ، والثاني جائز عقلي غير بديهي يحتاج ثبوت جوازه الى دليل ويسمى غير عادى ، بمعنى أنه يندر وقوعه في العادة ، أو أنه لم يقع قط ، ولذلك تستغربه العقول في بادى الامر ، ولكن إذا بحث عنه بالدليل وجد أنه جائز الوقوع ، وليس مستحيل الوجود ، ومثله انقلاب العصا ثعبانا ، وانفلاق البحر ، وعدم حرق النار لجسدا لانسان ، ونطق الحيوان الاعجم ، وأمثال ذلك ، فإن هذه الاشياء وإن كان وقوعها غير عادى ، لكن إذا بحث عنها بالدليل وجد أنها جائزة الوقوع ، وداخله تحت تصرف قدرة موجد العالم سبحانه

وإنا إذا قطعنا النظر عن العادة لم تكن أمثال هذه الاشياء بأغرب من خلق الانسان الذى يكون أولا ترابا ، ثم ينقلب نباتا ، ثم غذا ، ثم دما ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حيوانا ناطقا ، سميما بصيرا ، ثم يصير عالما محققا ، وحكيما مدققا ، ولولا العادة لكان من أغرب الغرائب عند العقل أن المطر ينزل على الارض الترابية فينبت به أنواع الاشجار والازهار والاشجار المتنوعة الالوان ، والطعوم ، والروائح ، والخواص ؟ ولولا العادة لكان من أعجب المعجائب أن شرارة صغيرة تخرج من قدح حديدية على حجر فتبتلع مدينة كبيرة بأهلها وجميع ما فيها . وتصيرهم رمادا ، ولولا العادة لكان من أيمد شئ عن التصديق أن قوة غير مرئية تحصل من تفاعل بعض الأجزاء ، فتحرك الاجسام

العظيمة ، وتجر الانتقال الجسيمة ، وتنقل بواسطتها أفكار البشر في أقطار الأرض الشاسعة ، ولجج البحار الواسعة ، ألا وهي القوة الكهربائية إلى غير ذلك من الكائنات التي ما أزال غرابتها عن العقول إلا تكرر وقوعها يبتنا ، ولا فرق بين هذه الأشياء العادية الوقوع وبين تلك الأشياء غير العادية الوقوع إلا حصول العادة في الأولى دون الثانية ، وإلا فإنا نظرنا في الدليل العقلي ، وجدنا أن كلا منهما جازر الوقوع وداخل تحت تصرف قدرة موجد العالم الذي ابتدع هذه الأكوان وأودعها من الأسرار ما تختار فيه الأفكار

وليعلم أن تلك الجائزات غير العادية هي التي جعل الله تعالى وقوعها على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، شاهدة بصدقهم فيما يخبرون به عنه تعالى ، كما سيأتي شرح هذا في المباحث الآتية ، إن شاء الله تعالى

الباب الأول

في بيان الايمان بالله تعالى ، وبيان اعتقاد أهل السنة بالنصوص
الشرعية الواردة في صفاته سبحانه ، وفيه ستة فصول

الفصل الأول

في تعريف الايمان بالله تعالى

اعلم أن معنى الايمان بالله تعالى هو : أن يعلم العبد ويعتقد اعتقاداً
جازماً ما يجب لله تعالى من الصفات ، وما يستحيل عليه من أضعافها ،
وما يجوز في حقه سبحانه ، فمعتقد إجمالاً اعتقاداً جازماً أنه يجب لله
تعالى كل صفة كمال تليق ب شأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى كل
نقص ، ويجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه ، ولكن يجب على العبد
أن يعتقد تفصيلاً بوجوب ثلاث عشرة صفة كمالية لله تعالى : عيها
مدار الألوهية ، وعظمة شأن الربوبية ، وبإستحالة أضعافها ما به
سبحانه ، وتلك الصفات الثلاث عشرة : هي الوجود وضده المعدم ،
والقدم وضده الحدوث ، والبقاء وضده الفناء ، والخالقة لا الحوادث
وضدها الممثلة لا الحوادث ، وقياؤه تعالى بنفسه وضده قياؤه تعالى بغيره ،
والوحدانية وضدها أن لا يكون واحداً ، والأرادة وضده الكبرهية

والقدرة وضدها العجز ، والعلم وضده الجهل ، والسمع وضده الصمم ،
والبصر وضده العمى ، والكلام وضده البكم ، والحياة وضدها
الموت ، وبما أن هذا الاعتقاد أن يكون بالبراهين المفيدة لليقين ، ولنشرح
في الفصل الآتي بيان وجوب كل صفة من هذه الصفات الثلاث
عشرة ، واستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك بمون الله تعالى

الفصل الثاني

في بيان الصفات الثلاث عشرة التي يجب الإيمان تفصيلا بوجوبها
لله تعالى ، وباستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك

«الصفة الأولى» الوجود : يجب لله تعالى الوجود ، ويستحيل عليه
ضده وهو العدم ، والدليل على ذلك أن هذا العالم المشاهد لنا بجميع ما يحويه
حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فهذا العالم لا بد له من محدث .
أما الدليل على أن هذا العالم حادث فهو كونه ملازما للأعراض الحادثة :
من الحركة والسكون ، والصور الحيوانية ، أو النباتية ، أو المعدنية
أو غيرها من الصور التي لا تخلو مدد العالم وجوهه عن واحدة منها ،
وكل ملازم للحادث يكون حادثا . وبوضيحه : أن هذه الأعراض حادثة
بدليل أن كل واحد منها يزول ويحلقة غيره والقديم لا يزول ، لأنه
إما قديم لذاته ، وإما قديم لغيره بمعنى أن شيئا آخر قديما استلزم وجوده ،
وما دامت ذات القديم قائمة ، أو الذي استلزمه قائما فلا يجوز : «لا زواله

فإذا ثبت كون هذه الاعراض حادثة نقول : أصل مادة العالم وجوده
إما أنه كان موجودا قديما، وخاليا عن أعراض وهذا باطل ؛ لأن الاعراض
ملازمة له لا يتخاو عنها جميعها ، إذ لا يتصور خلوه عن الحركة والسكون
وجميع الصور ، وأما أن يقال : حدث وحدثت تلك الاعراض معه ،
فثبت حينئذ أنه حادث والاعراض أيضا حادثة ، فثبت أن هذا العالم
بجميع ما يحويه حادث وهو المطلوب

وأما الدليل على أن كل حادث لا بد له من محدث ؛ فلأنه
لو وجد الحادث بدون محدث يلزم الترجيح بلا مرجع ، وهو من
المستحيلات البديهية . وتوضيحه لمن قد يخفى عليه ذلك : أن العقل
لا يصدق بأن إحدى كفتي ميزان متساويتين في الثقل بينما كانتا
متوازنتين ، أو اليسرى مثلا مائلة وبالقوة بميلها إلى الأرض بسبب
من الأسباب إذا رجعت النخبة على اليسرى وارتفعت اليسرى إلى
غاية ما يمكن من ارتفاعها وأن ذلك حصل بدون مرجع للكفة
النخبة الراجعة ، لا بقوة حيوان ، ولا بمصادمة هواء ، ولا جسم آخر
سقط فيها ، ولا بشيء مما يصلح لترجيحها ، ومن يصدق بهذا عد من
الحقا ، ولا فرق بين هذا المثال وبين جميع ما يتصور من الحقائق
سواء كانت حسية أو عقلية في أن الترجيح بلا مرجع فيها من المستحيل
كما هو ظاهر . فثبت بهذا : أن وجود الحادث بلا محدث مستحيل ، فلا
بد لكل حادث من محدث يخرج من ظلمة العدم إلى نور الوجود

فتمت لنا المدعى وهى : أن هذا العالم الحادث لا يد له من محدث .
ثم إن هذا المحدث لا بد أن يكون موجوداً ، لأن المعدوم لا يصلح
أن يكون موجداً لشيء كما هو ظاهر ، فثبت بجميع ما تقدم وجوب
وجود محدث لهذا العالم واستحالة عدمه وهو المطلوب من
هذا البحث ، وقد سمي العقلاء هذا الموجد للعالم باله العالم ،
ووردت الشرائع بتسميته باسم الجلالة وهو الله تبارك وتعالى

« الصفة الثانية » القدم : يجب لله تعالى القدم ويستحيل عليه
تعالى ضده وهو الحدوث ، والدليل على ذلك أنه سبحانه لو كان حادثاً
لاحتاج الى محدث ومحدثه مع فرضه حادثاً - يحتاج الى محدث ،
وهكذا ، فيلزم إما الدور وإما التسلسل وكل من الدور والتسلسل
محال . فإا أدى الى واحد منهما وهو حدوث الله تعالى يكون محالاً ،
وإذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديماً وهو المطلوب

أما الدور فهو : توقف وجود كل من الشئيين على وجود الآخر ،
فيلزم أن كلا منهما وجد قبل وجود سببه فيلزم أن يوجد قبل وجود
ذاته وهو طاهر البطلان ، فلو قلنا : أن الاله الذى توقف عليه وجود
العالم توقف وجوده على العالم لزم أن العالم قد وجد قبل وجود الاله
الذى كان سبب وجوده ، فيلزم أن يكون وجد العالم قبل وجود ذاته
وهو ظاهر البطلان

وأما التسلسل فهو: ترتب أمور وتعاقبها في جانب الأزل لانهائية لها، وإنما حكم العقل باستحالته، لأنه يستلزم المحال وما يستلزم المحال يكون محالاً

وقد ذكر العلماء لبيان استحالة التسلسل عدة أدلة نذكر منها هنا مايسهل فهمه، فنقول: لاشك أن العقل يحكم قطعاً بأن الشيء الذي يكون محصوراً بين حاصرين لا بد أن يكون متاهياً واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناه محال، فلو كان التسلسل جائزاً حقلاً لساغ لنا أن نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساق شكل مثلث ذاهبين الى غير نهاية، فاجزاؤها بمنزلة أمور مرتبة متعاقبة في جانب الأزل غير متناهية، ثم لنا أن نفرض المسافات التي بين هذين الخطين ونعتبرهما خطوطاً تمتد وتطول كلما امتد الخطان وتباعدا

هكذا  فإذا قلنا بعدم تنامي الخطين يلزم منه عدم تنامي

المسافات بينهما التي اعتبرناها خطوطاً، فلا بد أن تنتهي الى خط من تلك الخطوط غير متناه، والحال أنه محصور بين حاصرين. وهم الخطان. وقد تقدم: ان المقدار الذي يكون محصوراً بين حاصرين لا بد أن يكون متناهياً، واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناه محال، فما أدى اليه وهو عدم تنامي الخطين الذي فرضنا فيه التسلسل يكون محالاً. فيعد بيان أن كلامنا من الدبر والتسلسل محال

يثبت : أن الاله الذي هو موجد العالم لا يجوز أن يكون حادثا عن شيء آخر ، والا يلزم الدور فيما لو قلنا ان وجود الاله متوقف على وجود العالم ، أو التسلسل فيما لو قلنا : ان وجود الاله متوقف على وجود شيء آخر ، والشئ الآخر متوقف على آخر ، وهكذا الى غير نهاية ، وكل من الدور والتسلسل محال — كما تقدم — فما يؤدي الى واحد منهما وهو : كون الاله حادثا متوقفا على غيره يكون محالا ، واذا استحال حدوثه ، وجب أن يكون قديما ، ادلا واسطة بين الحدوث والقدم ووجوب قدمه سبحانه واستحالة حدوثه هو المطلوب

ثم بعد ثبوت قدم الله تعالى واستحالة حدوثه نقول : ان قدمه سبحانه لذاته وليس قدمه لغيره ، بمعنى أن أمر آخر اقتضى وجوده ، لانه لو قيل : بأنه قديم لغيره لانتقل الكلام الى ذلك الغير ويقال : هل هو قديم لذاته أو لغيره ؟ وهكذا الى غير نهاية فيلزم التسلسل وهو محال فلم يبق الا القول : بأنه قديم لذاته أي أنه ليس مستندا في قدمه الى سواه

« الصفة الثالثة » البقاء : يجب لله تعالى البقاء ، ويستحيل عليه ضده وهو الفناء والزوال ، والدليل على ذلك أنه قد ثبت وجوب التقدم الذاتي لله تعالى ، واستحالة الحدوث عليه سبحانه ، وما دام أنه تعالى قديم لذاته ، وذاته تعالى قائمة ، وقيامها يستلزم وجودها ، فلا يجوز أن يقبل الفناء والزوال . فثبت بهذا أن الله تعالى يجب له البقاء ، ويستحيل

عليه ضده وهو القناء وهو المطلوب

«الصفة الرابعة» المخالفة للحوادث : يجب لله تعالى المخالفة للحوادث ويستحيل عليه ضدها ، وهو المائلة للحوادث ، بان يكون تعالى مشابها لهذه الموجودات الحادثة في خاصة من خواصها التي من طبيعة نفسها أن تكون لازمة لها لا تنفك عنها ، أو من طبيعة نفسها أن تقبلها ، سواء كانت توجد في جميع الأنواع منها أو في بعضها وذلك : كالجوهرية ، والجسمية ؛ والعرضية ، والتعيز ؛ والتركيب ، والتجزى ؛ والتولد عن الغير ؛ وولادة الغير ؛ والاتصال والانفصال ؛ والحيوانية ؛ والنباتية ؛ والمعدنية ؛ والانتقال من حيز الى حيز ، والانفعالات النفسية : كالضحك ، والتعجب ؛ وأمثال ذلك ؛ لان الاله — سبحانه — لو شابه هذه الموجودات الحادثة في شيء من تلك الخواص لسكان مثلها ؛ لأن الشيء الذي يشابه شيئا آخر في خاصة من خواصه يكون مثله ألبتة ؛ ولو كان الاله مثلها لجاز عايه ما جاز عايتها من الحدوث والقناء ؛ لانه ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى . وبقائه : واستحالة حدوثه وفنائه . فقد ثبت بهذا أن الله تعالى لا يجوز عايه أن يشابه هذه الموجودات الحادثة : فوجب له مخالفتها ، واستحال عليه المائلة لها وهو المطلوب

«الصفة الخامسة» قيامه تعالى بنفسه : يجب لله تعالى قيامه بنفسه ، ويستحيل عليه قيامه تعالى بغيره ، وهو قيامه بغيره بمعنى قيامه

الى مكان يقوم فيه ، أو محل يحل فيه ، أو مخصص بخصصه ، أو موجود يوجد . والدليل على ذلك أنه قد ثبت في دليل المخالفة للحوادث أنه تعالى ليس جوهرًا ولا جسمًا ؛ فلا يحتاج الى مكان يقوم فيه ، لأن الاحتياج الى المكان من خواص الجواهر والأجسام ، وثبت هناك أنه تعالى ليس عرضًا فلا يحتاج الى محل يحل فيه ويتقوم به كما تحتاج الأعراض مثل الألوان والطعوم الى ذلك ؛ وثبت أيضًا أنه تعالى قديم فلا يحتاج الى مخصص بخصصه وموجود يوجد فثبت وجوب قيامه تعالى بنفسه ؛ واستحالة قيامه بغيره وهو المطلوب

« الصفة السادسة » الوجدانية : يجب لله تعالى الوجدانية أي أنه تعالى واحد في ذاته ؛ وفي صفاته ؛ وفي أفعاله ؛ ويستحيل عليه ضدها وهو : أن لا يكون تعالى واحدًا فيما ذكر ، بأن يكون مركبًا في ذاته أو في صفاته ، أو يكون له مماثل في ذاته أو في صفاته . أو له مشارك في خلق فعل من الأفعال

أما الدليل على أنه تعالى ليس مركبًا في ذاته ، ولا في صفاته ؛ فهو : أنه تعالى لو كان مركبًا في واحد منها لاشبه الحوادث في خاصة من خواصها ؛ ومقتضيات ذاتها ، وهو التركيب — كما تقدم في دليل مخالفته تعالى للحوادث — فيكون حادثًا مثلاً ؛ وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى واستحالة حدوثه ؛ وما الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل في ذاته ؛ ولا في صفاته . فلانه لو وجد له مماثل في ذاته يجب لذلك

المماثل ما يجب له تعالى . ويستحيل عليه ما يستحيل عليه سبحانه .
أو وجد له مماثل في صفاته الواجبة القديمة . لاسيما في تمام القدرة
على كل ممكن — كما سيأتى في إثبات وجوب القدرة التامة له تعالى —
لكان ذلك المماثل في الذات . أو في الصفات الواجبة القديمة إلهًا ولو كان
معه سبحانه وتعالى في الوجود اله . لما وجد هذا العالم كما أشير إليه
بقوله تعالى « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » أى لو كان يقوم
في خلق السموات والأرض إلهة غير الله تعالى أى وإن كان الله تعالى
معه لفسدتا أى لم توجدا . وشرح هذا الدليل أن يقال . لو تعدد
إله العالم كأن يكون هناك إلهان أو أكثر — إذ لا فرق في هذا الاستدلال ،
لما وجد شيء من هذا العالم ، لكن عدم وجود شيء من هذا العالم
باطل ، لأنه موجود وتثبت بالمشاهدة ، فما أدى إليه وهو تعدد .
الإله يكون باطلا ، وإذا بطل التمدد ثبتت الوحدةانية وهو المطلوب
وإنما يلزم من وجود إلهين عدم وجود شيء من العالم ، لانهما إما أن
يتفقا على إيجاد هذا العالم ، وإما أن يختلفا ؛ فإن اتفقا فلا جاز أن يوجداه ،
لأنه إما أن يحصل بإيجاد كل منهما وجود للعالم مستعمل ، فيلزم أن له
وجودين وهو أنما له وجود واحد فقط ، وإما أن لا يحصل بإيجادها
إلا وجود واحد للعالم ، فيلزم أن كلا منهما لم يوجد به بافتراده ، بل
بمشاركة الآخر ، فيكون هذان الإلهان قد ركبا وجعلا إلهًا واحد
ينسب إليه الإيجاد ولا ينسب لواحد منهما على الاستقلال . لأنه

جزء الموجد ، لا موجد مستقل ، وإله العالم انما هو موجد المستقل ،
 اذ يلزم له كمال القدرة وغير المستقل يكون عاجزا محتاجا الى معين ،
 وأيضا اذا قيل : ان الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا :
 قد ثبت ان التركيب محال على الاله لوجوب مخالفته للحوادث
 في صفاتها التي من خواص نفسها ومنها التركيب ، ولا جائز أن يوجد
 أحدهما ثم يوجد الآخر ، لان هذا تحصيل حاصل وهو محال كما
 هو ظاهر ، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض من هذا العالم ، والآخر
 البعض الآخر لازوم عجزها حيث لا بد لانه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض
 سد على الآخر طريق تعلق قدرته به ، وهذا عجز يتأى تمام القدرة
 على كل شيء ، والمعجز على الاله محال ، كما سيأتى من وجوب تمام قدرته
 تعالى على كل جائز ، وان اختلفا ، بأن أراد أحدهما إيجاد هذا العالم ،
 والآخر اعدامه فلا جائز أن تنفذ ارادتهما معا ، لئلا يلزم على هذا
 اجتماع النقيضين : وهو وجود العالم وعدمه فى آن واحد وهو محال
 ولا جائز أن تنفذ ارادة أحدهما دون الآخر لازوم عجز من لم تنفذ
 ارادته ، والآخر مثله ، لالتعاد الممانعة بينهما ، وقد يقال اذا نفذت
 ارادة أحدهما دون الآخر ، كان الذى نفذت ارادته هو الاله دون
 الآخر لعجزه وتم دلائل الوحدة

ودليل آخر على استحالة تعدد الاله انه لما وجب وجود إله للعالم
 دليل ان الحوادث لا بد منها من محدث ، فاذا وجد إله آخر فاما أن

لا يكون كل منهما كافيا في ايجاد العالم فلا يكون كل منهما إلها ، لأن
الإله هو السكافي المستقل ، وإما أن يكون واحد منهما كافيا فالثاني يكون
ضائعا لاحاجة اليه ، والإله لا يكون كذلك

وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مشارك في فعل من الأفعال .
فلأن الحوادث في هذا السكون إما هي حدوث حيوان ، أو نبات
أو معدن ، أو حركات غير الحيوانات : كحركات السكواكب ، والرياح
أو حركات الحيوانات غير الاختيارية : كحركة نمورها ، وحركة انتعاشها
الحاصلة بسبب الحمى مثلا ؛ فهذه الأشياء من البديهي أنه ليس لسوى
الله تعالى من المخلوقات دخل في ايجادها واحداثها ، ومما يجزم به كل
عقل أنه لم يصوره بصورته التي هو عليها أبوه ، أو أمه ، أو أحد من
المخلوق فيقال بعد ذلك : ان الدليل على تفرده الله تعالى بايجاد جميع ما ذكر
هو نظير الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل في ذاته ، ولا في صفاته .
اذ نقول في ايجاد كل منهما : لو كان هناك موجدان . فاما ان ينفقا
في ايجاد كل شيء مما ذكر . وأما أن يختلفا ويتم الدليل الى آخره كما تقدم
قريبا فيثبت أنه ليس خالق لهذه الأشياء إلا الله تعالى . وأما أن تلك
الحوادث حركات العباد الاختيارية : من نحو قيام زيد : ومشى عمرو
ونحو ذلك . فهذه أيضا إنما المتفرد بخلقها وايجادها هو الله تعالى . والدليل
على ذلك أنه لو كان العبد هو الموجد والخالق لفعله الاختيارى لكان
عالمًا بتفاصيله ، لكان علمه بتفاصيله باطل . فكونه هو الموجد نه

يكون باطلا فلم يبق إلا أن الموجد له هو الله تعالى الذي أوجد بقية الكائنات ولم يشاركه فيها مشارك

والدليل على بطلان علم العبد بتفاصيل فعله : أن النائم تحصل عنه أفعال اختيارية . لا شعور له بتفاصيل مقاديرها وكيفياتها . وإن الكاتب يصور الحروف والكلمات بتحريك أنامله من غير شعوره بما لا تأمل من الأجزاء والأعضاء . أعني العظام والغضاريف والأعصاب والمضلات والرباطات ولا بتفاصيل حركاتها وأوضاعها التي بها تأتي تلك الصور والنقوش . ثم أنه قد تواترت النصوص الشرعية بأن الخالق لأفعال العباد هو الله قال تعالى في كتابه العزيز « والله خلقكم وما تعملون » وقال تعالى « هل من خالق غير الله »

ويسوع لاهل الايمان الاعتماد في عقائدهم على هذه النصوص الثابتة في الدين المحمدي المين . وأخذها دليل عقيدتهم على أن الخالق لأفعال العباد هو الله تعالى . لكن للعبد كسبا في أفعاله الاختيارية هو مناط الثواب والعقاب . وبه صبح نسبة الفعل الى العبد في قولنا فعله . قال الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه في « الفقه الأكبر » مانصه : « جميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله خالقها انتهى . قال مفسر كلامه من الأئمة الكرام : يعني أن أصل الفعل بقدرته الله تعالى ولا تصاف بكونه طاعة أو معصية بقدرته العبد . وبيان آخر أن العبد يوجه إرادته إلى الفعل وبعقل قدرته به فيكون

ذلك منه سبباً لاتصافه به كبقية الاسباب في جانب مسبباتها .
وهذا من العبد هو الكسب والله تعالى عند ذلك يوجده بقدرته .
وهذا هو الخلق وهذا هو المذهب المتوسط بين الافراط والتفريط .
فلا نقول بانه : لادخل للعبد في جميع أفعاله ، ولا نقول : بانه لادخل لله
في أفعال العباد الاختيارية بل نقول : ان الله تعالى خالق أفعالهم وهم
يكتسبونها . وعلى كسبهم يثابون أو يعاقبون

« الصفة السابعة » الارادة : يجب لله تعالى الارادة وهي صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز بيمض مايجوز عليه ،
ويستحيل عليه ضدها وهو الكراهية ، والدليل على ذلك انه قد ثبت
أن هذا العالم لم يحدث بذاته . وانما حدث عن الله سبحانه . وحيث
نقول : ان حدوث العالم عنه تعالى اما أن يكون بطريق العلية
والضرورة بدون ارادة واختيار ، وأما أن يكون بطريق الارادة
والاختيار أى أنه هو الذى اراد وجوده واختاره وعين له الوقت
الذى يوجده فيه ، لاجائز أن يكون حدوث العالم عنه تعالى بطريق
العلية والضرورة بدون اختيار : لانه لو كان الامر كذلك - والله
سبحانه قديم : لازم أن يكون العالم قديماً لانه حيثئذ يكون معلولاً لله
تعالى - والمعلول يجب أن يتبع علته ولا يتأخر عنها وقد ثبت أن العالم
حدث وجد بعد أن لم يكن - فلم يكن حدوثه عن الله تعالى بطريق
العلية والضرورة - فلم يبق الا أنه حدث بارادة الله تعالى واختياره

ونخصيصه له الوقت الذى يوجد فيه ، فقد ثبت بهذا أن الله تعالى
إله العالم مرید مختار فوجبت له الإرادة واستحال عليه ضدها وهو
الكرهية وهو المطلوب

« الصفة الثامنة » : القدرة يجب لله تعالى القدرة وهي : صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى ، يوجد بها الحوادث ويمدها ، ويستحيل عليه
ضدها وهو المعجز ، والدليل على ذلك إيجاده سبحانه لهذا العالم وما احتوى
عليه من الأنواع ذات العظمة والغرابة : من نحو عالم الحيوان ، وعالم
النبات ، وعالم المعادن التى تشتمل على مئات الألوف من الأصناف
التي تختار في عظمتها وغرابتها المقول ، وتغرق في بحار عجائبيها الفهم
ولا يصدق العقل السليم ، ومن أجل المستحيلات عنده : أن من
أوجد هذا العالم بهذه المظمة ، والجلالة ، والغرابة يكون عاجزا مسلوب
القدرة ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله هذا العالم الذى أوجده من
العدم بتلك المظمة ، يجب له القدرة ، ويستحيل عليه ضدها وهو
المعجز وهذا هو المطلوب

« الصفة التاسعة » العلم : يجب لله تعالى صفة العلم وهي : صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف له بها جميع الأشياء من الواجبات ،
والجائزات ، والمستحيلات ، فيعلم سبحانه كل شيء منها على ما هو
عليه من الوجوب ، أو الاستحالة ، أو الجواز ، ويستحيل عليه تعالى
ضده وهو الجهل ، والدليل على ذلك إيجاده سبحانه لهذا العالم بما

أحتوى عليه من المعجائب والغرائب مع نهاية الاتقان ، وغاية الاحكام بما تختار في دقيق صنعه المقول ، وفي اتقانه الفهوم ، ويتضح هذا من نظر الانسان في أقرب الاشياء اليه ، وهو ذاته المشتملة على التدبير الباهر ، والاتقان الذي تختار فيه الانهتان . فكيف اذا تأمل في عجائب الكواكب ونظامها ، وعالم الحيوان ، والنبات ، والمعدن ، وما حوته من الاتواع ، والمواقفات ، والاختلافات الى غير ذلك . من المعجب المعجب ؟ ومن المستحيل عند العقل السليم : أن الذي أوجد هذا العالم بهذا الاتقان والاحكام ، ودقيق الصنعة ، وعجيب الوضع يكون جاهلا غير عالم ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذي أوجده بهذا الاتقان يجب له العلم ، ويستحيل عليه ضده وهو الجهل وهذا هو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب القدرة ، والعلم لله تعالى بنوع من البسط أن نقول : ان من نظر مثلا ساعة من الساعات التي يستعمل بها الوقت المحتوية على عدة آلات هندسية ، متقنة محكمة ، حتى وفيت بالغرض وضبطت الاوقات حتى الثواني منها : لا شك عنده ، ولا ريب في أن لها صانعا صنعا ، وان هذا الصانع له قدرة كافية لصنعها ، وعم كلف لاتقانها وإحكامها حتى تنفي بالغرض المقصود منها . ومن يصدق بانها حصاة وتكونت بنفسها بطريق الصدفة بدون صانع صنعا وأتقنها . أو أن صانعا عاجز مقطوع اليدين والرجلين حائل بموت

الهندسة والصنائع . بل هو خامل الفكر . جاهل بكل علم . ومع ذلك صنعها بذلك الاتقان والاحكام فيعد هذا المصدق من الحكماء . الذين لا يفرقون بين الارض والسماء . فكذلك اذا نظرنا في هذا العالم مع ما احتوى عليه من عجائب كواكبه . وغرائب حيوانه . ونباته ، ومعدنه التي ملأت علومها الكتب وطفعت بها الصحف . ولم نزل قاصرين عن الاحاطة بكل ما اشتملت عليه من العظمة والغرابة . كما يعلم من الاطلاع على كتب الفنون المتكفلة بالكلام على هذه العوالم - نجزم قطعا مع غاية اطمئنان قلوبنا بان هذا العالم بجميع مشتملاته لا بد له من صانع صنعه وأمرزه بهذا الاتقان والاحكام . وبوع أنواعه وصنف أصنافه . ويميز أشخاصه . وهو قادر أتم القدرة . وعالم آكل العلم . يستحيل عليه العجز والجهل . ومن نسب ذلك الصنع العظيم المعجيب الى حدوثه بنفسه صدفة وانفاقا . أو الى شيء آخر عاجز جاهل خال عن كل ادراك ومعرفة فلا شك أنه من أحمق الحكماء . وأجهل الجهلاء ؛ وان تستر بشويهدت واهية . وخرافات ساقطة ؛ فطرة الغفل السليم تاني تصديق دعواه الباطلة ؛ فنحن نجزم بما ستقدناه من نسبة صنع هذا العالم الاله القادر العليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

والصدقة الماترة السميع : يجب تدهال . . . وهي : صفة
تدوية . قائمة ببناء

ويستحيل عليه ضده وهو الصمم ، والدليل على ذلك ان الصمم نقص والنقص على إله العالم الذي أوجده مكملًا، ووهب السمع لبعض أنواعه، وجعله من أكبر النعم عليهم محال . وإذا استحال عليه سبحانه الصمم وجب له السمع وهو المطلوب

« الصفة الحادية عشرة » البصر : يجب لله تعالى صفة البصر وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بمقلة ولا حادثة : تنكشف له تعالى بها مبصراته . ويستحيل عليه تعالى ضده وهو العمى ، والدليل على ذلك ان العمى نقص والنقص على الله تعالى الذي أوجد هذا العالم مكملًا ، وزين بعض أنواعه بنعمة البصر محال . وإذا استحال عليه تعالى العمى وجب له البصر وهو المطلوب

« الصفة الثانية عشرة » الكلام : يجب لله تعالى صفة الكلام وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت : تدل على الواجبات . والمستحيلات . والجائزات ما كان منها وما يكون : يفهم بها سبحانه ما يريد أفهامه لأحد عباده . ويستحيل عليه ضده وهو البكم . والدليل على ذلك أن البكم نقص والنقص على الله تعالى إله العالم الذي أوجده وكلل بعض أنواعه بالتطيق والكلام محال وإذا استحال عليه سبحانه البكم وجب له الكلام وهو المطلوب

وتوضيح دليل وجوب صفة السمع . والبصر . والكلام له تعالى واستحالة أضدادها وهي : الصمم . العمى . والبكم بنوع خاص

أن نقول : إن الصفات التسع التي تقدم اثبات وجوبها له تعالى واستحالة تضادها : وهي أي تلك الصفات ، الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية ، والإرادة ، والمقدرة . والعلم وأن كان عليها مدار الألوهية ووجود إله متصف بها يكفي في توبيه وجود هذا العالم ، ويقنع العقل السليم ، لكننا إذا تأملنا بهد ذلك في شأن هذا الإله سبحانه وفي بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان والأحكام ، بحيث إنه سبحانه أعطى كل شيء كماله وكل ما يقوم بوجوده ، ويصلح لشأنه ، نجزم بأنه إذا كانت مصنوعاته في هذا الكمال فمن المستحيل أن يكون هو سبحانه ناقصا لأننا في جميع ماتصوره لا نجد الشيء يوجد مثله فضلا عن أن الناقص يوجد ويبتدع الكامل أو أن الكامل يوجد أكل منه ، هذا الإنسان هو أعلم الحيوانات وأقدرها في الصناعة ، مهما صنع وابتدع ، فانه لا يقرب في صنعه من الكمال الذي هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو إنسان بل لو سقطت شجرة من جسده لا يقدر على إعادتها كما كانت . وما نراه يجري على يده من ظهور النبات ، والحيوان ، فأنما هو بمباشرة الأثر الذي جعلها الله تعالى أسيايا عادية لتولد النبات أو الحيوان : فنراه ينبت في الأرض ويأرضه للحرارة ويسقيه الماء فينبت منه سائر الزرع الذي يجري كمنه نبت ، وحدثت فيه سائر خواصه

من اللون ، والطعم والرائحة ، وغير ذلك ، وكذلك يضع بيض الطائر في الحرارة فيتولد منه طائرته وهو لا يدري كيف تكون ذلك الطائر ، وشق سمعه ، وبصره ، وتصور لحيه ، ودمه ، وسائر أعضائه ، وفي هذا بيان ظاهر أن الانسان لم يصنع النبات ، والحيوان ، وإنما تسبب في صنعهما ، مع جهله بكيفية نشأتها عن أسبابهما ، وإله العالم هو المنفرد بصنعهما جل وعز ، فملى جميع ما تقدم : نجزم بأن هذا الإله الذي أوجد العالم من العدم ، ونوع منه الأنواع التي تحار فيها الأفهام ، وكل بعضها بالسمع والبصر والكلام ، يجب أن يكون له مرتبة السكال في صفاته التي ثبتت لدينا بالدليل العقلي وفي كل صفة كماله ندين به تعالى والا كان دون مصنوعاته وفلك خلاف ما يصدق به العقل ، فنعتقد أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكامل ، بل متصف بكل صفة كمال تليق بشأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى العدم ، والعمى ، والبكم ، وهو الذي أبدع السمع ، وأثار البصر ، وأطلق اللسان بالكلام ، كما يستحيل عليه تعالى أن يكون ناقصا في صفة كماله وقد أوجد في مصنوعاته كل كمال

هذا : ويسوغ لنا معتر المسلمين أن نكتفي في اعتقاد نبوت هذه الصفات الثلاث وهي : البصر ، والسمع ، والكلام . له . في الدليل السمعي من نحو قوله تعالى « وهو السميع العليم » وهو « وكلام الله موسى تكلمي » ونخرج ذلك عن صفاته .

« الصفة الثالثة عشرة » الحياة : يجب لله تعالى صفة الحياة وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، تصحح عقلا اتصافه بصفاته الجليلة : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، ويستحيل عليه تعالى ضدها وهو الموت ، والدليل على ذلك أنه لو كان ميتا لما صح اتصافه بصفاته التي قام الدليل على وجوب اتصافه بها : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، لكن قام الدليل على وجوب اتصافه بها فنالحال أن يكون سبحانه وتعالى ميتا ، وإذا استحال عليه الموت وجب له الحياة وهو المطلوب

الفصل الثالث

في بيان أن من صفات الله تعالى — التي تقدمت — ما يتعلق بالأشياء . و — تتعلقها ، وأن منها ما لا يتعلق بشيء .
اعلم أن صفات الله تعالى الثلاث عشرة التي تقدم لنا إقامة الدلائل على وجوبها له تعالى ، وأست مائة أضدادها ، منها ما لا يتعلق بشيء . وهي سبع صفات : الوجود ، والعدم ، والبقاء ، والمخالفة لغيره ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية ، والحياة ، ومعنى عدم تعلقه بشيء ، أنه لا يكون بها تخصيص الأشياء ولا إيجادها ولا كسفها ولا الدلالة عليها كما يكون للصفات الآتية ، ومنها ماله تعلق بالأشياء وهي ست صفات : تعالى وهي : الارادة ، والقدرة ، السمع ، والبصر ، واللام ، والكلية .

أما الإرادة والقدرة فيتملقان بالجائزات فقط . ولا يتعلقان بالواجبات ، والمستعيلات . فالإرادة تتعلق بالجائز تتعلق تخصيص فيخصص الله تعالى بها في الأزل الجائز ببعض ما يجوز عليه . مثلا يخص الله تعالى في الأزل زيدا بأنه يوجد أم لا . وبأنه اذا وجد يكون على صفة كذا في الزمن الفلاني . والمكان الفلاني . والجهة الفلانية من الأرض . وهم جرا وبهذا التخصيص يجب أن يكون هذا الجائز على ما خصصه الله تعالى به بإرادته ويستحيل أن يكون بخلاف ذلك ، لأنه لو كان بخلاف ما أراه الله تعالى فيه لزم أن يكون الله تعالى كارها مقهورا يحصل في ملكه ما لا يريد وهو حالة لا يرضى بها المخلوق المملوك فما بالك بالخالق ملك الملوك سبحانه وتعالى ؟ والقدرة له تعالى تتعلق بالجائز تتعلق بتأثير بإيجاده أو بإعدامه على طبق ما تعلقت به الإرادة في الأزل مثلا إذا تعلقت إرادته تعالى في الأزل بإيجاد زيد على صفة كذا في زمن كذا في مكان كذا فاذا جاء الزمن الذي تعلقت إرادته تعالى بإيجاد زيد فيه تعلقت قدرته تعالى بإيجاده فيوجد سبحانه فيه بقدرته على الصفة التي خصصه بها في المكان الذي خصصه له بإرادته ، وكذلك إذا تعلقت إرادته تعالى بإعدام عمرو على وجه مخصوص تعلقت قدرته تعالى بإعدامه ، فيعدمه سبحانه بقدرته على طبق تدفق الإرادة بدون تخلف . والا لزم تخلف إرادة الله تعالى وهو محال كما تقدم قريبا

وانما لم تتعلق كل من ارادة الله تعالى ، وقدره ، بإيجادا ، ولا
إعداما بالواجبات : كذاته تعالى ، وصفاته ، وملازمة الجرم للحيز ،
ولا بالمستحيالات : كالشريك له تعالى ، والجمع بين النقيضين : ككون
زيد موجودا معدوما في آن واحد ، فلأن الواجب حاصل حتما ولا
يمكن خروجه من الوجود إلى العدم ، فلا تتعلق به الارادة والقدرة
لا إيجادا لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ، ولا إعداما لاستحالة
عدمه وخروجه عن الوجود ، ولأن المستحيل معدوم حتما ولا
يقبل الوجود فلا تتعلق به الارادة والقدرة لا إعداما لأن ذلك
تحصيل حاصل وهو محال ولا إيجادا لاستحالة وجوده وخروجه عن
العدم . وعلى تقرير هذا المقام لو سأل سائل وقال : هل يقدر الله
تعالى على إعدام الواجب الفلاني أو على إيجاد المستحيل الفلاني
كشريكه تعالى ؟ فالجواب المقترن بالأدب أن نقول : إن البرهان قد
دل على أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيالات
لا إيجادا ولا إعداما وما ذكرت أيها السائل فهو من الواجبات ،
أو من المستحيالات فقدرة الله لا تتعلق بهما ، ولا نقول : إنه تعالى
لا يقدر على ذلك لأن هذا من سوء الأدب في جانب الحضرة
الالهية ويوهم العجز عنه تعالى وتقدس

وأما السمع والبصر له تعالى فيتعلقان بجميع الموجودات — سواء
كانت واجبات ، أو جائزات تتعلق انكشاف — ولا يتعلقان بالمعدومات

سواء كانت مستحيالات أو جائزات - فبرى سبحانه وتعالى ذاته الكريمة وصفاته ويسمع كلامه كما أنه يرى ويسمع كل مرئي ومسموع جائز من مخلوقاته فبرى الذرة في الليلة الظلماء ، ويسمع صوت مشيها على الصخرة الصماء ؛ لأن سماعه وبصره تعالى ليس كسمع الحوادث وبصرهم الحاذئين الناقصين المتوقف ادرا كهما على شروط وأسباب عادية

وأما علمه تعالى وكلامه سبحانه فيتعلقان بالواجبات ، والمستحيالات والجائزات الموجودات منها والمعدومات : أما علمه فيتعلق بهذه المذكورات تعلق انكشاف : فيعلم الله تعالى بعلمه الواجب وأنه واجب وذلك : كذاته المقدسة وصفاته ، ويعلم بعلمه المستحيل وأنه مستحيل وذلك : كالشريك له تعالى ، ويعلم الجائز وأنه حائز سواء كان موجوداً أو معدوماً سيوجد أو لا يوجد فيعلمه سبحانه على ما هو عليه ولا يعزب عن علمه سبحانه شيء من كل شيء أو جزئ في الأرض أو في السماء : فيعلم عدد الرمال وقطرات الأمطار وورق الأشجار وذرات الكائنات ولا نهاية لمعلوماته سبحانه

وأما كلامه تعالى فيتعلق بالواجبات والمستحيالات والجائزات تعلق دلالة : فكلامه سبحانه الذي ليس بحرف ولا صوت يدل على كل واجب ومستحيل وجائز موجود أو معدود ، بكل ما هو عليه ويفهم الله تعالى بكلامه كل واحد منها لمن أراد إقناعه من عبده كلاتكته ورسله عليهم الصلاة والسلام

الفصل الرابع

في بيان أنه يجب أن نعتقد بجميع صفاته تعالى وأسمائه التي ورد
الشرع بما يفيد ثبوتها له تعالى ، مع بيان أن أسماءه تعالى توقيفية
اعلم أنه لما ثبت عندنا معشر المسلمين أن سيدنا محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى بدليل
ما ظهر على يديه من المعجزات الخارقة للعادة التي كان ظهورها على
يديه تصديقا له من جانب الله تعالى بدعوى الرسالة ، وحيث ثبت
أنه رسول الله : يجب له الصدق في جميع ما يخبر به ، ويستحيل عليه
الكذب ، كما سيأتي برهان جميع ذلك في الباب الثاني إن شاء الله تعالى :
وجب علينا وصح لنا تصديقه في جميع ما جاء به في نصوص شريعته
من إثبات الصفات لله تعالى ، وقد جاء في نصوص شريعته من القرآن
الشريف وحديثه المشيف ما يفيد وصف الله تعالى بالصفات التي
تقدم ذكرها مع إثباتها لله تعالى بالدليل العقلي واستحالة تضادها
وهي التي عليها مدار الألوهية وعظمة شأن الربوبية ، وجاء أيضا
في نصوص الشريعة ما يفيد وصف الله تعالى بصفات أخرى كإياله : من
أنه تعالى عدل حكيم صمد هاد خالق رزاق قيوم الى تمثال ذلك مما
صفحت به نصوص الشريعة المحمدية : فيجب الإيمان بجميع ماورد له
تعالى من الصفات العلية في نصوص الشريعة الاحمدية ، لان الخبر بها

وهو رسول الله صادق مجزوم بصدقه بما قام من دلائل رسالته من
عند الله تعالى

ثم كما جاءت نصوص الشريعة بآيات الصفات له تعالى كذلك
جاءت بآيات أسمائه سبحانه التي سمي بها نفسه ومنها لفظ «الله» الذي
هو الاسم الخاص به تعالى وهذا اللفظ الكريم كما أن اللغة العربية
تطلقه على الإله سبحانه وتعالى قبل إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة
والسلام كذلك جاءت الشريعة بإطلاقه عليه تعالى فتسميته تعالى به
تسمية شرعية نعتد بها على نص الشريعة وهكذا بقية أسمائه تبارك
وتعالى فتسميته بكل منها شرعية ولا يجوز تسميته باسم لم يرد به
الشرع الشريف، وهذا معنى قول علماء الإسلام : إن أسماء الله تعالى
توقيفية ، أي أن إطلاق كل اسم منها عليه بتوقيف الشرع الشريف
ولا يجوز إطلاق اسم عليه تعالى بدون توقيفه

الفصل الخامس

في بيان ما ورد في نصوص الشريعة نسبه إلى الله تعالى مما يوهم
التشبيه والمماثلة للأحداث . وبيان كيفية اعتقاد أهل السنة والجماعة
في ذلك ، وطريق تأويله عند الحاجة إليه
إعلم أنه كما ورد في الشريعة الحمدية ما يفيد وصف الله تعالى

بصفات كمالية، منها ما قامت الدلائل العقلية على ثبوته له تعالى ، ومنها ما ليس كذلك لكن لما أخبر به الرسول المبرهن على صدقه بالمعجزات ولا مانع عقلا يمنع من ثبوته له تعالى آمنا وصدقنا به وذلك مثل كونه تعالى قابل التوبة من عباده وأنه يثيب الطائع ويعذب العاصي كذلك وقد ورد في نصوص الشريعة الفراء نسبة أشياء لله تعالى توهم ظواهرها مماثلته ومشابهته للحوادث وسميت تلك النصوص بالمتشابهات والحال أن الدليل العقلي قد قام على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته لها، وكذلك الدليل النقلى ورد بذلك . قال الله تعالى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فنعتقد في تلك النصوص المتشابهات أن لها معانى صحيحة تليق به تعالى خالية عن استلزام مماثلته تعالى للحوادث : وليست هي المعانى المتبادرة من ظواهر تلك النصوص المستلزمة للمماثلة ونفوض علم حقيقة تلك المعانى الصحيحة إليه سبحانه فنكون بذلك الاعتقاد منزهين له تعالى عن مماثلة الحوادث ومفوضين له في علم ما أراد من تلك النصوص ، وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح رضى الله عنهم ، لكن لما ظهر بعض الفرق المبتدعة وتمسكوا بظواهر تلك النصوص المتشابهات واعتقدوا المعانى المتبادرة منها المستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث، وخيف على اعتقاد بعض الضعفاء في الدين من سريان بدعتهم إليه تأول العلماء المتأخرون هذه النصوص المتشابهات تأويلات مناسبة موافقة للأدلة العقلية على ما ذكر

في كتب التفسير وشروح الأحاديث، وهم في تلك التأويلات، عند
التصدر لرد مذهب المبتدعة أو تثبيت عقيدة الضعفاء كأنهم يقولون
مادامت تلك النصوص المتشابهات محتملة لمان صحيحة مناسبة موافقة
للأدلة العقلية جارية على قواعد اللغة العربية فبالحمل عليها احتمالاً
يحصل التوفيق بينها وبين الأدلة الدالة على وجوب مخالفته تعالى
للحوادث واستحالة مماثلته تعالى لها ونسلم من اعتقاد ما ربما يخرج به
المرء عن الإيمان، والعاذ بالله تعالى — وبيان الطريقتين في ذلك أنه
قد ورد قوله تعالى في القرآن المجيد « الرحمن على العرش استوى »
وقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك » وقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم »
وقوله تعالى : « والسموات مطويات بيمينه » وقوله تعالى « وجاء
ربك » إلى غير ذلك من الآيات ، وورد في الحديث الشريف قوله
عليه الصلاة والسلام « رأيت ربي في أحسن صورة » وقوله عليه
الصلاة والسلام « إن الجبار يضع قدمه في النار » وقوله عليه الصلاة
والسلام « ينزل ربكم إلى سماء الدنيا » إلى غير ذلك من الأحاديث ،
فالطريق الأسلم الذي درج عليه السلف الصالح رضي الله تعالى
عنهم أن تقول في هذه النصوص: إن لها معاني غير ما يتبادر منها وهي
صحيحة موافقة للأدلة العقلية والنقلية الدالة على وجوب مخالفته تعالى
للحوادث ، وإنا نؤمن بها ، وتفوض معرفة حقيقتها إلى علم الله تعالى .
وهذا القدر يكفي في صحة الإيمان فاستواءه تعالى على العرش هو حقيقة

من صفاته تعالى اللائقة به ليس كاستواء الحادث المستلزم للجسمية والجهة ، والنزول الى سماء الدنيا صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كنزول الحادث المستلزم الانتقال من حيز إلى حيز ، والمجى كذلك ، ونقول أيضا : إن له تعالى يدا ويمينا وقدمي ليست كأعضائنا بل : هي على ما تليق به سبحانه لاتستلزم التجزؤ والمقدار وهو سبحانه أعلم بحقيقة تلك المعاني التي أرادها من تلك النصوص ، وهكذا القول في كل نص متشابه

وإذا تصدينا لرد مذهب المبتدع المدعى بمائلته تعالى للحوادث تمسكا بظواهر هذه النصوص ، أو أردنا تثبيت عقيدة الضعفاء في الدين ، فنقول على طريق التأويل : ان تلك النصوص تحمل معاني غير ما يتبادر منها لاتستلزم مائلته تعالى للحوادث وبالحمل عليها توافق الأدلة العقلية والنقلية الدالة على تنزيهه تعالى عن المائلة ونأمن بذلك من الخطأ في الاعتقاد الذي ربما يؤدي إلى الكفر والعباد بالله تعالى ، وبيان ذلك أنه يحتمل أن المراد من الاستواء على العرش هو الاستيلاء والقهر كما قال الشاعر العربي :

* قد استوى بشر على العراق *

أي استولى ، والمراد بذلك بيان عظمته تعالى ونفوذه حكمه على كل شيء من هذا العالم ، ويحتمل أن المراد بالنزول الى سماء الدنيا هو الاقبال على عبادته ، وقد ورد في اللغة العربية النزول بمعنى الاقبال فالمعنى ان

الله تعالى يقبل على عباده في ذلك الحين فغير من ذلك الاقبال بالتزول الى سماء الدنيا، ويحتمل أن المراد بالمجيء هو الاقبال أيضا وأن المراد وجاء أمر ربك وسلطانه، ويحتمل أن المراد بالوجه الذات فانه يطلق ويراد به الذات، وأن المراد باليد واليمين القدرة وكل ذلك له شواهد من استعمالات اللغة العربية التي جاء القرآن والأحاديث النبوية بها، وهكذا يجري التأويل في كل ما ورد من التشابهات فليس شيء منها إلا وقد وجد له العلماء تأويلا مناسباً موافقاً للأدلة العقلية على قانون اللغة العربية، وقد أفردوا لذلك كتباً تكفلت ببيان ذلك، فعلى كل مكاف أن يؤمن بجميع ما ورد من تلك النصوص المتشابهات، ويعتقد أن لها معاني صحيحة لا ثقة بجانبه تعالى غير مستلزمة لمائلته تعالى للحوادث، ويفوض معرفة حقيقتها المرادة منها الى علم الله، وإذا احتاج الى التأويل في دفع مذهب مبتدع، أو لرفع الوسوسة عن قلبه ولم يكن أهلاً للتأويل فلا يرجع الى العلماء الأعلام ويفهم منهم تأويل ما أراد تأويله ولا يستقل به وهو ليس أهلاً له خشية أن يقع في خطأ يدخله في البدعة أو في الكفر نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة

وليعلم أن النصوص المتشابهات التي مر الكلام عليها في هذا الفصل هي الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام: وأما ما ينسب الى الرسول عليه السلام بعض أهل الاختيار ولم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام بنقل العدول فهذا وإنما لا يجب علينا التصديق به فضلاً عن الاحتياج الى تأويله. والله تعالى أعلم

لفصل السَّابِعِ

في بيان ما يجوز في حق الله تعالى ، وبيان مسائل خالفنا فيها
أهل البدع

قد تقدم بيان ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه سبحانه ، فلنشرح
الآن في هذا الفصل ما يجوز في حقه تعالى فنهول : —

يجوز في حقه تعالى فعل كل جائز أو تركه ، مهما كان الجائز عظيماً
دقيق الصنعة : فأن الله تعالى قادر على صنعه ، والدليل على ذلك من
نصوص الشرع الشريف قوله تعالى « والله على كل شيء قدير » ، والدليل
عليه عقلاً : أن الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، وإن كل جائز هو
قابل للوجود والمدم ، فيكون الله تعالى قادراً على إيجاد وإعدامه ،
والذي يوضح جواز فعله تعالى لكل جائز أو تركه مهما كان الجائز
عظيماً دقيقاً ما نشاهده في هذا العالم : من عظام مصنوعاته تعالى ،
وغرائب مبتدعاته ، فانه قد تصرف فيها بقدرته إيجاداً وإعداماً ،
نعم قد جرت عادته تعالى بأن لا يوجد خوارق العادات ، أي الأمور
العظيمة التي لم تجر العادة بوجودها إلا على أيدي رسله عليهم الصلاة
والسلام . مجزة لهم ، وتصديقاً لدعواهم الرسالة ، أو على أيدي أوليائه
كرامة لهم ، أو على أيدي بعض عباده معونة لهم ، أو استدراجاً ،
أو خذلاناً . كما سيأتي تفصيله — وكل ذلك في النادر

ومن الجائز في حقه تعالى خلق الخير والشر ، ولا يكون ذلك منه قبيحا ، خلافا لبعض المبتدعة ، لأنه تعالى : فاعل مختار ، يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وربما يكون الشيء حسنا في نفسه وإن خفى علينا حسنه وعدونه شرا ، على أن الشر يكون شرا بالنسبة إلينا ، ولذلك نؤاخذ بكسبه ، ومخالفة النهي عنه ، ويكون فعله منا قبيحا ، وأما بالنسبة إليه تعالى فلا يقال : إن الشيء الفلاني خير ، والشيء الفلاني شر ، لأنه سبحانه لا ينتفع بشيء ، ولا يتضرر من شيء ، وأيضا أنه كثيرا ما يقع الشر في السكون ، فلو كان بغير خلقه وإرادته تعالى لزم أن يقع كثير في ملكه ليس بخلق ، ولا بإرادته ، وهو عجز وقهر على منصب الألوهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ومن الجائز عليه تعالى أن يفعل غير الصالح وغير الإصلاح في حق عباده ، ولا يجب عليه أن يفعل ذلك في حقهم خلافا لبعض المبتدعة لأنه لو وجب عليه تعالى فعل الصالح والإصلاح لعباده لما خلق الكافر الفقير ، المعبذب في الدنيا بالفقر وفي الآخرة بالمعذاب الأليم لأن الإصلاح له عدم خلقه ، وإن خلقه فالإصلاح له إيمانه صغيرا أو سلبه عقله قبل بلوغ سن التكليف لكنه تعالى خلق ذلك الكافر ولم يفعل الإصلاح في حقه : فظهر أنه تعالى لا يجب عليه فعل الصالح والإصلاح لعباده ، بل هو الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ومن الجائز في حقه تعالى عقلا : أن يعذب المطيع وينعم العاصي

ولا يقبح ذلك منه ، لانه مالك مطلق ، فاعل مختار ، ولانه ان أثبات
 فيفضله ، وان عذبنا فبعده ، ولاتأثير للطاعة في وجوب الثواب ،
 ولاتأثير للمعصية في وجوب العذاب لكن لما ورد في نصوص
 الشريعة الحميدة وعده سبحانه وتعالى للمطيع بالثواب ووعد
 للمعاصي بالعقاب : صار واجبا شرعا أن لا يتخلف وعده ، ولا وعده ،
 لانه لو تخلف ذلك لزم الكذب والخلف في خبره تعالى وذلك محال .
 لكن الوعد بالثواب يجب شرعا أن لا يتخلف في حق أحد من المطيعين
 لانه نقص والنقص عليه تعالى محال . وأما الوعد بالعقاب فقد أخرج
 منه المؤمنون المغفور لهم بالدلائل الدالة على أن الله تعالى قد يغفر
 لبعض عباده الذنوب ، وأما الكفار فلا يتخلف الوعد في حقهم
 للأدلة الشرعية الدالة على تحتم خلودهم في النار ، وأما المؤمنون غير
 المغفور لهم معاصيهم فلا بد من نفوذ الوعد في حقهم ولو بتعذيب
 واحد منهم ، لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى

ومن الجائز عليه تعالى مثلا أن ينظر بالابصار ، لانه سبحانه
 وتعالى موجود ، وكل موجود يصح أن يرى ، فهو سبحانه يصح
 أن يرى ، لكن لم نتمع برؤيته تعالى في الدنيا لغير نبينا محمد صلى الله
 عليه وسلم ، ورؤيته سبحانه في الآخرة للمؤمنين واجبة ترعا باتفاق
 أهل السنة والجماعة لنص القرآن ، والأحاديث الشريفة ، ولاجماع
 الصحابة عليها ، لكن رؤيته تعالى بلا كيف ، وبلا انحصار ، ومفنى

قولنا « بلا كيف » انها بدون تكييفه سبحانه بكيفية من كفيات الحوادث من نحو المقابلة للرأى ، والجهة ، والتعيز ، لأن الرؤية قوة إدراكية يجعلها الله تعالى فى خلقه لا يشترط فيها عقلا مقابلة المرئى ، ولا كونه فى جهة وحيز ، ولا غير ذلك ، واتماجعات هذه شروطا عادية : يجوز أن يخلق الله تعالى الرؤية بدونها ، ومعنى قولنا « إن رؤيته تعالى بلا انحصار » أى بدون انحصاره تعالى عند الرأى بحيث يحيط به ، لاستحالة الحدود والنهايات له تعالى ، ولا تخالف بين وجوب رؤية المؤمنين له تعالى وبين قوله فى القرآن الشريف « لا تدركه الابصار » لأن معنى إدراك الابصار رؤيتها على وجه الاحاطة بحيث يكون المرئى متحيزا بحدود ونهايات ، وهذا لانقول به ، لأنه محال عليه تعالى ، وقد خالف فى جواز رؤيته بعض المبتدعة ، وتمسكوا بشبه « مردودة عليهم فى الكتب المطولة

ومن الجائز عليه تعالى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام للمخلق فليس ارسالهم واجبا عليه تعالى ، ولا استحيل ، بل اطف منة تعالى ، وإحسان ورحمة بمحض الفضل ، لما فى ارسالهم من الحكم والمصالح التى لا تحصى : منها مائدة العقل فيما يستقل بمعرفته ، مثل وجود الاله سبحانه ، وعلمه وقدرته ، ومنها استفادة الحكم فيما لا يستقل به العقل مثل المعاد الجسماني ، والحساب ، ومنها بيان حال الافعال التى تحسن تارة ، وتفبح أخرى من غير اهتمام العقل

الى مواقعها ، ومنها بيان منافع الاغذية ، والادوية ، ومضارها
التي لا تفي بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من
الاحطار، ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة
في العمليات ، والعمليات ، ومنها تعليم الصنائع الخفية من الحاجيات ،
والضروريات ، ومنها تعليمهم الاخلاق الفاضلة ، الراجعة الى الاشخاص
والسياسيات الكاملة العائدة الى الجماعات في المنازل والمدن ، ومنها
الاخبار بتفاصيل ثواب المطيع ، وعقاب العاصي ، ترغيباً في الحسنات
وتحذيراً عن السيئات ، الى غير ذلك من العوائد ، ثم بعد اعتقادنا
بجواز ارسالهم في حق الله تعالى ، وأنه ليس بواجب عليه : يجب علينا
اعتقاد حصول ارسالهم من لدن آدم الى رسولنا محمد صلى الله تعالى
عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وسلم ، وسياقنا بيان كيفية تفصيل
الايمان بهم عليهم الصلاة والسلام في الباب الثاني والله الموفق .

الباب الثاني

في بيان الايمان بالرسول ، والانبياء ، والملائكة ، والكتب
واليوم الآخر . وما يتبع ذلك . وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في بيان الايمان بالرسول والانبياء عليهم الصلاة والسلام
اعلم أن الرسول هو : انسان ذكر حر أوحى الله تعالى اليه
بشرع وأمره بتبليغه لخلق وان لم يؤمر بالتبليغ يسمى نبيا فقط
وقد تقدم ان ارسال الرسل من الجائز على الله تعالى . ولكن قد حصل
منه تعالى ارسالهم تفضلا على عبادهم لما فيه من القوائد الكثيرة . والايمان
بالرسل هو : أن تؤمن بأن الله تعالى ارسالهم مبشرين ومنذرين ،
وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات ، وان تؤمن بما يجب لهم ، وما يستحيل
عليهم ، وما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام : فيجب لهم الامانة
ويستحيل عليهم ضدها وهو الخيانة ، ويجب لهم الصدق ويستحيل
عليهم ضدها وهو الكذب ، ويجب لهم الفحاشة ويستحيل عليهم ضدها
وهو الغفلة وعدم النظرة . ويجب لهم تبليغ ما أمرهم الله تعالى بتبليغه

للمخلق ويستحيل عليهم ضده وهو كتمان ذلك ، ويجوز في حقهم
الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية ، وكال
الآيمان بما ذكرنا أن يكون . قرونا بالدليل . فنقول في بيان ذلك :

يجب لرسول عليهم الصلاة والسلام الأمانة ، وهي العصمة
ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم : من التلبس بمعصية . ويستحيل
عليهم ضد الأمانة وهي الخيانة . فهم محفوظون طاهرا : من الزنا ،
وشرب الخمر ، والكذب ، وأمثال ذلك : من المنهات الظاهرة ،
ومحفوظون باطنا : من الحسد ، والكبر ، والرياء ، وأمثال ذلك : من
المنهات الباطنة ، وما أومئ من النصوص الشرعية وقوع المعصية منهم :
مؤول بتأويلات حسنة مذكورة في كتب التفسير ، وشروح
الاحاديث النبوية ، فلي المكاف إذا اشتبه بشئ . من تلك النصوص
في حق الرسول عليه : الصلاة والسلام أن يرجع في تأويله إلى العلماء
الاعلام . ليفهم منهم تأويله ويكون اعتقاده موافقا لاعتقاد أهل السنة
والجماعة . والدليل على وجوب الأمانة لرسول عليهم الصلاة والسلام
واستحالة الخيانة عليهم أنهم لو خانوا بفعل معصية لكانا ماء وورين
به لأنه تعالى أدرنا بآتياءهم : في أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم من
غير تفصيل ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر بالمعصية

وينجب لهم صبرهم الصلاة والسلام الصدق ، ويستحيل عليهم

ضده وهو الكذب ، أما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم
 فيما يبلغونه عن الله تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا في ذلك لزم
 الكذب في خبره تعالى ، لتصديقه لهم ، بالمعجزات ، وهي خوارق
 العادات التي يجريها الله تعالى على أيديهم تأييدا لهم ؛ لأنها نازلة منزلة
 قوله سبحانه « صدق عبي في كل ما يبلغ غي » ، وتصديق الكاذب
 كذب وهو محال عليه تعالى ، فيكون كذبهم فيما يبلغون عنه تعالى
 محالا ، وإذا استحال كذبهم في ذلك وجب صدقهم فيه وهو المطلوب
 وأما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم في غير ما يبلغونه
 عنه تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا لكان كذبهم خيانة تخالف
 وجوب الأمانة والعصمة لهم ، وقد تقدم الدليل على وجوب الأمانة
 لهم ، واستحالة الخيانة عليهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الفطانة ، وهي التفتن واليقظ
 ويستحيل عليهم ضدها ، وهو الغفلة وعدم اليقظة ، والدليل على
 ذلك أنهم لو لم يكونوا فطنا وكانوا غفيا لما أمكنهم إقامة الحجة على
 خصمهم ، والمجادلة معهم ، لاقتناعهم بالحق ، وهذا يخاف من نصيبهم
 الذي أرسلوا به ، هو : هداية الخلق إلى الحق ، فوجب بذلك لهم
 الفطانة ، واستحال عليهم ضدها ، وهو الغفلة وهو المطلوب

وينجب لهم عليهم الصلاة والسلام نبأهم لما خلق ما أمره الله
 تعالى بتبليغه ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتمانهم شيئا من ذلك .

والدليل على ذلك أنهم لو كتبوا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكان ما مورين بكتان العالم ؟ لأن الله تعالى أمرنا بالافتداء بهم ، وكوننا ما مورين بكتان العلم باطل ، فكتانهم شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلاً ، فوجب لهم تبليغ ما أمروا بتبليغه واستحال عليهم كتمان شيء من ذلك وهو المطلوب

وأما الجائز في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو سائر الأمراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية ، وذلك كالأكل ، والشرب ، وجماع النساء في الحلال ، والأمراض التي لا تخل بمنصب الرسالة ولا تكون منفرة للخلق عن الاجتماع بهم ، والأخذ عنهم ، والدليل على ذلك شهادة تلك الأمراض بهم وهي لا تخل بمنصب الرسالة ، وأما الأمراض التي تخل ، أو تنفر عنهم الخلق ، مثل الجنون ، والانهاء الطويل ، والجذام ، والبرص ، والعمى فهي ممتعة عليهم ، ولم تبت أن شعيها كان أعمى ، وما كان بأيوب من البلاء فقد كان ألماً تحت الجلد : ليس منفراً ، وما اشتهر في قصته من الحكايات المنفرة فهي : باطلة

وأما السوء فمتنع عليهم في الأخبار البلاغية ، أي التي يبلغونها «خلق نحو» الجنة «عدت للعتيقين» في غير البلاغية أيضاً ، نحر قام ، وذهب عمرو ، لأنه يورث الشبهة لبعض الضملاء في عموم أخبارهم وشرقي مناصب الرسالة ، وأما الشهور في أنهم غير البلاغية

والبلاغة : كالسهو في الصلاة ، فهو غير ممتنع عليهم ، وحكمة وقوعه منهم أن يرى الناس كيف يعملون عند حدوث السهو في عباداتهم ، لأن دلالة الفعل أوضح من دلالة القول . وأما النسيان فهو ممتنع عليهم في البلاغيات قولية كانت أو فعلية ، فالقولية نحو « الجنة أعدت للمتقين » والفعلية نحو صلاة الضحى : إذا أصرروا بقملها ليقتردى الناس بهم ، فلا يجوز نسيان شيء من ذلك قبل تبليغ الأولى بالقول ، والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من جانب الله تعالى لحكمة يعنها . وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم ؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل . ووسوسة الشيطان لآدم عليه السلام بتهليل ظاهري . والممتنع لعبه ببواطنهم . والمخلص أنه يجوز على ظواهرهم ما يجوز على بقية البشر مما لا يؤدي إلى نقص وإخلال بمنصب الرسالة ، وأما ببواطنهم فتزهوة محفوظة متممة بربهم وما يوم خلاف هذا فقول يرجع في فهم تأويله إلى العلماء الأعلام . وليعلم أن جميع ما ذكر في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوجوب ، والاستحالة ، والجواز : يلزمنا أن نعتمده في حق الأنبياء وهم : الذين أوحى الله تعالى إليهم بيسر ولم يأمرهم بتبليغه للخلق . لأنه ربما ترجع إليهم الناس في الاستفتاء عن أحكام شرائع الرسل قبلهم ، ولأنهم ما هو ، وإن أن يبلغوا الخلق أنهم أنبياء . ليعتبرموهم . ولأنهم يعملون بما أوحى إليهم

ثم ليعلم أنه يجب الايمان بجميع الانبياء والرسل اجمالا ، بان
يؤمن المكلف بكل نبي ورسول لله تعالى ، وبما يجب لهم ،
وما يستحيل ، وما يجوز ، والأولى أن لا يمين عددا مخصوصا
لاختلاف الروايات في عددهم ، وقد قال تعالى « منهم من قصصنا
عليك ومنهم من لم نقصص عليك » لكن يجب الايمان تفصيلا بالرسول
الذين ذكرت اسماءهم في القرآن الشريف ، وقد جمعت اسماءهم الشريفة
في هذه الايات :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| اسماء رسل الله في القرآن | خمس وعشرون : تحذيراتي |
| هم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود | يونس ، إلياس ، اليسع ، داود |
| اسحق ، ابراهيم ، لوط ، موسى | ذوالكفل ، يحيى ، زكريا ، عيسى |
| شعيب ، ثم صالح ، أيوب | هارون ، ثم يوسف ، يعقوب |
| ثم سليمان ، وسامعيل | محمد ، ختمهم الجليل |

الفصل الثاني

في شرح معجزات الرسل التي أيدهم الله تعالى بها ،
وبيان طريق وقوعها ، واقامة الحجج بها

علم أنه قد تقدم في هذا الكتاب أن الجائز العقلي هو : ما يقبل
التبوت ، ولا تنفاه ، وأن كل جائز فهو داخل تحت تصرف قدرة الله

تعالى مهما كان عظيما ودقيق الصنع ، وتوضيح ذلك بعد ثبوت أن الخالق لهذه الكائنات هو الله تعالى ما نشاهده من أعماله في هذه المصنوعات ، من العظمة ، والدقة ، والحكمة

ولنشر إلى تفصيل بعض ذلك فنقول : لننظر إلى عالم الكواكب وما اشتمل عليه : من العظمة ، والغرابة ، وعجيب الترتيب والانتظام ، كما يظهر من كتب علم الهيئة التي تكفلت بشرح حقيقة ذلك ، ولننظر إلى عالم الجويات وما احتوى عليه ، من الهواء ، والرياح ، والبروق ، والرعود ، والسحاب ، والأمطار ، والكائنات الجوية التي أفردت بالتأليف ، وصارت علما واسما ، ولننظر إلى الأرض وما اشتملت عليه ، من الجبال ، والودية ، والكهوف ، والسهول ، والبحار ، والأنهار ، والينابيع ، والمعادن ، والكائنات الأرضية : من الزلازل ، والتغيرات العظيمة ، ولننظر إلى عالم المعادن وما فيها ، وما احتوى عليه من الأنواع المختلفة ، في الألوان والطعوم ، والخواص ، والمنافع ، ولننظر إلى عالم النبات وما فيه من اختلاف الأشجار ، والأزهار ، والأثمار ، المتنوعة في الألوان ، والروائح ، والطعوم ، والأشكال ، والأقذار والخواص ، والمنافع وغرائب تولده ، ونموه ، وإقامته ، وسائر حواله التي أفردت بالتأليف وأصبحت على من أعظم العلوم . ولننظر إلى عالم الحيوان وما يحويه من العظام والغرائب في اختلافه في الصغير والكبير ، والقوة والضعف .

والذكاء والبلادة ، وتباين الاشكال والهيئات والاصناف وما فيه من عجيب التركيب وغريب التأليف وما في أعضائه من إحكام الصنع ، وإتقان الوضع ، حتى وفي كل عضو بوظيفته ، وإذا نظرنا في أنفسنا وما اشتمل عليه الجسد الانساني من غريب الصنع ، وبديع التركيب لا أخذتنا الحيرة وأدركتنا الدهشة ، وفي الاطلاع على كتب التشريح الانساني وما بيته من أعضاء الانسان ووظائفها ، وغرائب أبنيتها وتراكيبها وانتظاماتها ودقيق صنعها عبرة لأولى الالباب

ومن أغرب ما في الانسان حواسه : من السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس وأغربها حاسة البصر وما احتوت عليه من باهر الصنع بوضع طبقات العين وأشكالها وصفاتها وانتظامها وإحكامها على نواويس كونية حتى وفدت بوظيفة الابصار التي تختار في كيفيته الافكار ، وتالله إن العلوم التي تكفلت بالكلام على هذه العوامل وشرح حقائقها وأحوالها وان تكن قد جاءت بكثير من عجائبها مما الاطلاع عليها يربي الايمان في القلوب — لمن وفقه الله تعالى — ويشهد لصانها بمعظيم القدرة ، وكمال العلم والحكمة ، لـكن ما انطوى عليه من عجائبها ودقائق حكمها وأسرارها هو بحر عجاج لا تدركه العقول ، ولاننى بالاحاطة به الروايات والنقول ، فسبحان من كانت هذه الكائنات بارادته وقدرته ، وتدبيره وحكمته ؟ فيعد التأمل في حدوث هذه الاجزئات وآثاره : لا بد لها من صانع هو رب الارض

والسموات نعمام قطما : أن كل جائز عقلا مهما كان عظيما جسيما
وغريبا عجيبا فهو داخل تحت تصرف قدرة هذا الاله القادر المليم
الحكيم ، ولكن وجدنا أنه سبحانه قد وضع في تكوين هذه الكائنات
وتصوير تلك العوالم أسبابا وقوانين جرت عادته تعالى في أحداث
هذه الحوادث عندها فجعل مثلا حدوث النبات بواسطة التراب
والماء والحرارة ، وحدث الحيوان بواسطة انتقال مادته الاصلية
من الذكر إلى الانثى وتنميته في جوف الانثى بوسائل شتى مع
مرور زمن مخصوص على كل من هذين التكوينين ولكن لدى
تدقيق النظر والبحث في الادلة العقلية ، وملاحظة عظيم قدرته سبحانه
وكمال علمه وتدبر عجائب صنعه : ظهر لنا معشر اهل السنة والجماعة
أن جميع تلك الاسباب والقوانين التي وضعها الله سبحانه ، وجرت
عادته في إحداث الحوادث عندها ما هي إلا عادية بمعنى إن عادته
تعالى جرت بإحداث الحوادث عندها لا بتأثيرها ، وإن الزمن الذي
خصص لتكوينها وحدثها ما هو إلا عادي أيضا ، وهو سبحانه
وتعالى قادر على إحداث تلك الحوادث بدون تلك الاسباب والقوانين
وبدون مرور ذلك الزمن الذي يكون ظرفا لتكوينها وحدثها ويظهر
ذلك لمن تأمل أن التراب والماء والحرارة لا يظهر فيها أدنى داع
لأن تصور أنواع النباتات من كل نوع منها على لون ، وضم ، ورائحة
وشكل خاص ، وليس عندها قدرة ، وعلم ، وإرادة ، وهما ، لا تصرف

في أنواع النباتات ذلك التصرف المعجيب الغريب ، وأيضا اتا نجد
بعض أنواع النبات مشتملا على دقائق من الصنعة ، وغرائب من
الوضع قد يحدث في زمن قصير جدا ، ونجد نوعا آخر بسيط
التكوين : ليس فيه تلك الدقائق ، ولا يحتوي على تلك الغرائب ، قد
يحدث في زمن طويل ممتد ، وهذا تنبيه من الحق تعالى على أن
الزمن ليس شرطا متوقفا عليه التكوين توقفا لازما عقلا ، بل ان
ذلك الزمن لم يجعل ظرفا للتكوين إلا عادة جرت للعقل تعالى من
غير احتياج اليه . والا فلو احتيج اليه لكان الشيء الأغرب
في الصنعة أطول زمنا من الشيء الذي يكون دونه في الغرابة

وبما تقرر : ظهر أن الله تعالى الذي أحدث هذه الكائنات
قادر على إحداثها بدون تلك الشروط والأسباب والأزمنة الموضوعة
لتكونها : فيجوز أن يوجد الله تعالى نباتا في لحظة طرف أو أقل بدون
تلك الأسباب التي جرت عادته أن يحدث النبات عندها ، وقادر
على إيجاد حيوان كذلك ، وعلى قلب الجراد نباتا ، أو حيوانا في لحظة
طرف ، وإحداث أعظم من ذلك من خوارق العادات ، ولـكن
ذلك منه سبحانه لم يكن مطردا ، بل قد يجريه على يد رسول من
رسله معجزة مصدقة له بدعوى الرسالة ، كما قاب عصا سيدنا موسى
عليه الصلاة والسلام نباتا ثم أعادها عصا في زمن يسير : وهكذا
ترجيح جميع خوارق العادات التي نقلنا وقوعها معجزات لأرسل

عليهم الصلاة والسلام جرت على أيديهم تصديقا لهم : مثل انفلاق البحر ، وانشقاق القمر ، وكلام المعجماوات ، ومجئ عرش بلقيس في لحظة طرف ، وبعد ذلك كله فانك ترى بعض من استولت الغفلة على قلوبهم قد سترت عنهم عظمة مصنوعات الله تعالى المعتادة لديهم وغرائبها لكثرة مشاهدتهم لها ، ويعجبون من حدوث شيء نادر الوقوع لم تجر العادة في برونه لدى حواسهم ، وربما يكون هذا الشيء في العظمة ، ودقة الصنعة : دون ما جرت العادة بحصوله وألفته أنفسهم ، وما ذلك إلا لعدم اعتيادهم على مشاهدة ما ندر وقوعه حتى ربما كذبوا من يخبرهم به أشد التكذيب وان كان ثقة عندهم ، مثلا : تراهم يعلمون أن التراب ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دما ، ثم نطفة ، ثم بعد انتقاله لرحم الأنثى ينقلب علقة : ثم قطعة لحم ، ثم تتصور حيوانا سميما بصيرا شاما ذئقا لامسا ، ثم يخرج من بطن الأنثى : ضعيف العقل والقوى ، ثم يصير قويا صلبا وليدا حاذقا عالما مدققا ويقول أنا وأنا ، وما جسده إلا قبضة تراب وسيمود كما كان ، وذلك : لا عجيبون من جميع ما جرى في هذه التحولات والاطوار ؟ وإذا أخبرهم تخبر أن فلانا الرجل الصالح قد شفى الله تعالى فلانا المبتلى البرص على يديه بمجرد أنه لمسه ودعاه : تجدهم قد عدوا ذلك من الخيال ، وحسبوا الخبر به من خرافات الأقوال ، ولو كان الخبر من أصدق الرجال ، والحوال أن شفاء ذلك الابرص على ذلك الوجه ليس بأعظم من كمن لا إنسان

بتلك الاطوار العجيبة بل دونه في المظنة بكثير . وليس الفرق بين الامرين إلا أن الأول قد جرت به العادة والثاني ليس كذلك، ولكن مادمتا نعتقد أن الموجد لكلا الأمرين هو الله القادر العليم الفاعل المختار فإني داع يدعو للاعتان بالاول والانكار للثاني؟ نعم لو أن الدعوى أن ذلك الرجل الصالح قد أوجد شفاء البرص بقدرته كان للانكار وجه، وذلك لعدم صلاحية قدرته لاهداث هذا الشفاء ولكن الدعوى: أن الله تعالى قد شفى البرص على يديه كرامة أكرمه بها فلا وجه للانكار ما دام المخبر صادقاً موثقاً به ونسب ذلك التأثير لله تعالى الذي هو قادر على كل جائز وهذا الأمر كان من المجازات اذا احط علما بجميع ما قررناه : فاعلم أن الله تعالى لما أرسل الرسل للخلق أيدهم بالمعجزات لتكون دليلاً صدقهم في دعواهم الرسالة: والمعجزة هي أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعى الرسالة من الله تعالى، فالرسول عندما يدعو القوم الذين أرسل اليهم الى تصديقه وامثال التصرع الذي يبلغهم إياه عن الله تعالى لا بد أنهم يريدون منه دليلاً على صدق دعواه فيقترحون عليه خرق العادة في الأمر الفلاني والأمر الفلاني : من نحو انشقاق القمر، وخروج ناقة من الصخر، وغير ذلك فالله سبحانه وتعالى يخرق العادة على يد ذلك الرسول ويوجد ما تدعيه به وأثبت انهم، وحيث: يظهر لهم صدقه في دعواه فيثبتون: ربه من عند الله تعالى: لانهم يلزمهم أن يقولوا حيث

في الاستدلال : ان هذا الامر الخارق للعادة لا يقدر على ابرازه للوجود إلا الاله القادر عليه ولولا أن ذلك الرجل المدعى الرسالة صادق لما أبرز الله تعالى على يديه ذلك الامر الغريب ، قابراه على يديه تصديق له من جانب الله تعالى بلا ريب : فالعجزة تكون في حق ذلك الرسول وفي حق قومه بمنزلة قول الله تعالى « صدق عبي في كل ما يبلغه عني » ونظير ذلك في رجل ادعى في حضرة ملك أنه سفير بينه وبين رعيته الحاضرين في حضرة الملك وعليهم أن يصدقوه فيما يبلغهم عن ملكهم ، فطلب منه أولئك الرعايا ما يدل على تصديق الملك له في تلك الدعوى فقال : ان علامة تصديق الملك لي في ذلك أنه يقوم الآن عن كرسيه ويخطو سبع خطوات ويفعل ذلك ثلاث مرات على خلاف عادته ، فبمجرد سماع الملك ذلك قام عن كرسيه وفعل مثل ما قال الرجل ، فلا شك أن القوم الحاضرين يجزون حينئذ بصدق ذلك الرجل ، ويعدون قيام الملك بملك الكيفية تصديقاً له . فيعتمدون جميع ما يبلغهم ذلك الرجل عن ملكهم . ومن يقل بخلاف هذا فهو من الحق بمكان ، أو مكيل بقيود العناد والحسرة . واذا بلغنا الى ههنا فنقول : -

إن المعجزات التي أظهرها الله تعالى على أيدي الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام هي كثيرة جداً ، فنذكر منها ما يشتهر . وذكر في القرآن المجيد ، أو في صحيح الأساطير النبوية . ونسرح

توجيه حصول تلك المعجزات على قانون العقل السليم حتى تندفع شبه المبطلين المكارين لها من أهل الضلال ، ويزداد بذلك يقين أهل الحق في آيات الإيمان ، ولكن بعد أن نتكلم على أشهر المعجزات المذكورة في القرآن لبعض الرسل نفرد فصلا لمعجزات نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونتكلم على بعض الطرق التي أوصلت اتباعه الى الخطوة بتصديقه ، واتباع طريقه فنقول : —

من المعجزات التي ذكرت في القرآن الشريف ، معجزة سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بانفلاق البحر حين ضربه : — فقام حتى مر بنو اسرائيل فيه ونجوا من فرعون ، ثم أهلك الله تعالى فرعون وقومه بانطباع البحر عليهم عند ما أرادوا لحوق موسى وقومه ، فاعلم أن من بلغه خبر هذه المعجزة إن كان منكرا لوجود إله العالم — والعاذ بالله تعالى — فهذا يكون الصواب في حقه أن يقام له الدلائل على اثبات وجوده تعالى ، واثبات صفاته الجليلة ، ثم بعد ذلك يبين له حال المعجزات ، وإن كان مؤمنا بوجود الخالق سبحانه فتبني تصور عظمة قدرته ، وتأمل في عظام أعماله ، وتصور أن انفلاق البحر ما هو إلا جازع عقلي من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، لأن العقل يحكم بقبوله للشبوت والانتفاء ولا يلزم من ثبوته محال ، فلا مانع يمنعه من التصديق بذلك ، ومن بوضح جواز انفلاق البحر أن المساء قابل للانقسام كبقية الأجسام .

وقابل للتماسك كما يشاهد تماسكه بالجلود بالبرد مثل ما يرى في الأنهر
العظيمة التي تجمد أيام البرد وتقر عليها الحيوانات ، وإن كان انفلاق
وتماسك ماء البحر بتلك السرعة حتى مر بنو إسرائيل بين قطعه ثم
رجوعه إلى السيلان سريعاً حتى غرق فيه فرعون وقومه أموراً
عظيمة تحتاج إلى قدرة تامة ، فله سبحانه وتعالى تام القدرة فلا يعجزه
ذلك ، فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بهذه المعجزة القرآن الكريم
على لسان رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي ثبت
صدقه لدينا بالإبراهيم العديدة ، وهي من الجائزات العقلية الداخلة
تحت تصرف قدرة الله تعالى النامة آتت رصداً بذلك من دون شك
ولا ريب ، وكل منصف إذا تأملها لا يجدها من المحالات . والله قادر
على أحداثها تأييداً لرسوله ، وحفظاً لعباده المؤمنين ، وإهلاكاً لأعدائهم
الكافرين

ومن المعجزات التي ذكرت في القرآن المجيد أيضاً سيدنا
موسى عليه السلام نبع الماء من الحجر عندما ضرب بعصاه بأرض الله
تعالى ففعل : كان حجراً مخصوصاً ، وفيل المراد أي حجر كان . وهذه
يقال أيضاً : إذ من بلفه - بهذه - كان مشكراً للخالق تعالى
فقد ذكرنا ما هو الصواب في حقه كان مؤمناً بوجود الخالق
تعالى وتعام قدرته ، وعظيم اتقائه . فيلحقه تصديق هذا الأمر
يتصور : أن نبع الماء من الحجر لا يمكن أن يكون

تعالى يخلق ويبرز من العدم مقداراً من الماء يكفى بنى اسرائيل ثم يجعل سبيل بروزه في مشاهدتهم من الحجر عند ما يضربه . وسى . والثانى أن يحول الله تعالى الهواء ماء ، ويجعل سبيل بروزه في المشاهدة أيضاً من الحجر ، وتحول الهواء ماء وعكسه هو من الأمور الجائزة التى دخلت تحت تصرف قدرة الكيماويين ، كما يعلم من فن الكيمياء ، وفى هذا العام قدروا أن يحولوا الهواء سائلاً من السائلات فما بالك بقدرة من خلق الكيماويين وجميع أعمالهم ؟ فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بذلك الصادق ، ورأينا أن ذلك من الجائزات الداخلة تحت تصرف القادر سبحانه آمنا وصدقنا به ؛ وبأن الله تعالى أوجده معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وابقاء الحياة عباده بنى اسرائيل الذين أعوزهم الماء فى التيه

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام المذكورة فى القرآن الشريف : انقلاب عصاه ثعباناً كبيراً ابتلع الحبال والعصى الكثيرة التى سحرتها سحرة فرعون ، وخيلتها للناس حيات ، فهذه المعجزة أيضاً يقال فيها : ان السامع بها إن لم يكن مؤمناً بالخالق تعالى ، وبمعظم قدرته ، فقد تقدم ما هو الصواب فى حقه ، وان كان مؤمناً بالخالق تعالى فيكفيه لتجوز وقوع هذه المعجزة تصوره أن مصنوعاته تعالى العظيمة : من عوالم النبات ، والجيران كلها حدثت بقدرة وتكوينه ، وقد حول مواضعها من صورة إلى صورة ، فقلب التراب نباتاً ،

والنبات حيوانا ، وأن الأسباب التي جعلها في هذا الكون لحدوث هذه الكائنات والأزمنة التي جعلها ظروف الحدوثها ماهي إلا عادية والله تعالى قادر على تلك الأعمال بدون تلك الأسباب ، وبدون تلك الأزمنة ، وأن الله تعالى قادر على إعدام الأجسام أو تفريقها هباء لا تدركه الأبصار . فنحن معشر الأمة المحمدية لما أخبرنا الصادق بحصول تلك المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، ونحن نعتقد بكل قدرة الله تعالى عليها ، وعلى أعظم منها من الجائزات آتينا وصدقنا بها وقتلنا : لا مانع من أن الله تعالى قلب تلك العصا التي هي جسم نباتي ثعبانا عظيما وكبر جسمه بضم بعض الأجسام الأرضية إليه ، وبعد أن ابتلع الحبال والعصى أعاده عصا بقدر ما كانت وأقني الأجسام التي زادها في تكبيره وأجسام الحبال والعصى التي ابتلعها . أو فرق جميع ذلك وصيرها هباء لا يرى ، وكل ذلك أو جده الله تعالى بدون الأسباب والأزمنة العادية التي شرعها في الكون لذلك الصنع إذ هو قادر على ذلك ، وكان خرق العادة في هذا الحال معجزة دالة على صدق رسوله موسى عليه الصلاة والسلام

ومن معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التي أخبر بها القرآن المجيد رفع الطور وهو الجبل فوق بني إسرائيل حتى قبلوا اليثاق ، وهذه المعجزة يسلم بحجواز وقوعها من يؤمن بوجود لاله قادر ، ويتأمل في أعماله العجيبة وأنك كما رفع من جبرام مظلمة جدا

وأقامها في الفراغ ، وإن قيل على مذهب المتأخرين من الفلكيين :
أن تلك الأجرام قائمة في الفراغ بناموس الجاذبية قلنا : أن من أوجد
ذلك الناموس هو قادر على إحداث ناموس نظيره لرفع الطور ،
على أن الأسباب التي وضعها سبحانه وتعالى في هذا الكون ماهي
إلا عادية - على ما تقدم بيانه : فهو قادر سبحانه على إيجاد هذه
الكائنات بدون وجود أسبابها ، فنحن معشر المصدقين بالقرآن
الكريم قد أخبرنا بهذه المعجزة الصادق ، وهي من الجائزات العقلية
الداخلية تحت تصرف القادر الذي نؤمن بوجوده وبكمال قدرته فنؤمن
ونصدق بحصولها بتمدرة الله تعالى بمعجزة سيدنا موسى عليه السلام ،
وترهيبا لبني اسرائيل حتى قبلوا الميثاق

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام ارسال الجراد والقمل
والضفادع ، والدم ، على قوم فرعون ، وانزال المن والسلوى على بني
اسرائيل في التيه ، وهذه الاشياء يؤمن بجواز وقوعها من يؤمن بالله
تعالى القادر على هذه الامور وأعظم منها ، وتوضيح جوازها : أنه
يشاهد إلى الآن في هذا الكون ارسال الجراد وغيره من الحيوانات
المؤذية : كالديدان ، والفيروسات على زرع قوم دون قوم ، ويشاهد أن
بعض الأقاليم يفسد ماؤها ويورث شربه أمراضا لأهلها ، وبعد
البحث عن سببه يظهر أنه قد تولد في ذلك الماء حيوانات صغيرة جدا

لا تدرك إلا بالمسكبرات ، ولعل الدم كان من هذا القليل ، ويشاهد أيضا أنه قد يقع عوض المطر أشياء لم يعتد وقوعها ويعلو وقوعها أهل البحث بأن ريحا نقلتها من مكان آخر وأنزلتها على آخرين ، فما دام الحال أن جميع تلك الأشياء من الجائزات عقلا المشاهد نظيرها في أيامنا فما المانع من أن الاله سبحانه أوجدها على يد موسى عليه السلام معجزة له ، وترهيبا لا يقبض أعدائه ، ورزقا لبني اسرائيل الذين كانوا في اليه يعوزهم القوت ، فتفضل عليهم تعالى باليمن والسلوى ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بحصول جميع تلك الجائزات على يد موسى عليه السلام بخلق الله تعالى معجزة له كما أخبرنا بذلك الصادق

ومن المعجزات التي ذكرها القرآن الشريف خروج ناقة من صخرة على يد سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام عند ما طلب منه قومه ذلك حتى يؤمنوا به ، فمن يسمع هذا الخبر ويكون معسدا بوجود الاله القادر يكفيه للتصديق بجواز ذلك أن يتصور عجائب صنعه تعالى وانه قادر على قلب التراب حيوانا ، وتحويل المواد الى صور مختلفة ، اذ لا مانع من أن الله تعالى صور قطعة من نفس مادة تلك الصخرة من باطنها بصورة ناقة ، وقامها للحيوانية بصورة النبق ، وجعلها حية حساسة ، ثم فلق الصخرة عنها وأخرجها فتوم صالح معجزة له عليه السلام ، فان الاسباب ولازمة التي جعلها عاده سبحانه في الخيوانات هي الاعادية . وهو قادر على إيجاد الخيوانات منها

وكم يوجد في باطن الصخور حيوانات مثل الدود لا يدري الباحثون كيف تخلق داخل الصخر ، ويوجد حولها نبات دقيق : مثل العفن الذي يظهر على الحيطان الرطبة تتغذى به وكلما رحت نبت غيره ، وقد شوهد ذلك ونقله الثقات ، فإدام هذا جائزا في مثل هذه الحيوانات فهو جائز في مثل الناقة : إذ لا فرق إلا بالكبر والصغر ، وهو لا يفيد الاستحالة في الكبير دون الصغير . فنحن معشر المؤمنين نعتقد بحصول تلك المعجزة ، لأنها من الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وقد أخبر بها الصادق ، فهي : حق وصدق بلا ريب

ومن المعجزات التي أخبر بها القرآن المجيد عدم احتراق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنار العظيمة التي ألقاه فيها الملك الكافر الذي حابه إبراهيم عليه السلام ، فمن يكن مؤمنا بوجود الإله القادر ويعتقد أن النار لا تحرق بطبيعتها ، ولا بقوة أودعت فيها ، بل احراقها هو بخلق الله تعالى ، وعدم احراقها من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف الإله سبحانه ، وإن كان ذلك خلاف المادة ، فلا مانع بمنعه من تجويز وقوع هذه المعجزة ، ومن ينكر وجود الخالق تعالى ، ويعتقد أن النار تحرق بطبيعتها فهذا يكون الصواب في حقه أن يقدم له أولا الدلائل الدالة على وجود الإله سبحانه ، وعلى قدرته على كل الجائزات ويوضح له أن النار ليست بحرفة بطبيعتها بل يخلق الله تعالى الاحراق عند ما تشاء قابلا للاحتراق ، إذ لا يوجد في نفس حقيقةها يقتضي

أن تحرق الاجسام ، لانه ان قيل : إن موجب احراقها هو النور
الذى فيها وهو مولد الحرارة المحركة قلنا : هذا نور الجباحب ، وهو
الحيوان الصغير الذى يوجد فى الليل على النباتات وفى مؤخره نور
يسطع ، والمادة التى ينبعث منها ذلك النور مادة حيوانية فسفورية
لاحرارة فيها ولا احراق ، وكذلك كثير من المواد الفسفورية كما
يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق فى النار هو
اتحاد العناصر الذى تتكون النار بسببه على زعم الكيمائيين المتأخرين
قلنا : نطلب البيان الكافى ، لم كان هذا الاتحاد موجبا للاحراق دون
جميع الاتحادات التى تحصل بين العناصر والاجسام الكيماوية ؟ كما
يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق هو الحركة
المخصوصة للاجزاء الفردة للجسم مع الاجزاء الفردة للأجسام
أحد جزئى الهواء كما يقول أيضا المتأخرون من الكيمائيين ، قلنا :
نطلب التوضيح الشافى ، لم كانت هذه الحركة موجبة للاحراق دون
جميع الحركات التى تحصل بين أجزاء الاجسام المتعدة على قول
أولئك الكيمائيين ؟ ولم لم تسكن حركة أجزاء الجسم الذى تنشأ عنه
البرودة المفرطة حتى يجمد بها الماء موجبة للاحراق ؟ ولم خصت
الحركة الأولى بالحرارة والاحراق والحركة الثانية بالبرودة والتجميد ؟
فيمنا يظهر أن الخصم لايسمى الا أن يقول : لا أدري لا أن كلا
قد خص بما ينشأ عنه ولا بد من مخصص فنقول له : نحن نعلم ذلك

المخصص : هو الله تعالى الذي خص ما شاء بما شاء ، فأحرق النار ليس
الابن خلقه وإيجاده ، وليس في النار شيء يقتضى أن يؤثر بالاحراق
ولا بسواه بل هي مسخرة تحت تصرفه سبحانه وتعالى ، إن شاء أنشا
عنها الاحراق والاعدام ، وإن شاء أنشا عنها البرودة والسلام : نعم
قد جرت عادته سبحانه في هذا الكون أنه جعلها محرقة بخلقها وإيجاده
فإذا أراد خرق العادة بدم خلق احراق فيها فلا مانع يمنعه ولا حجر
عليه ، وقد أشار سبحانه الى خرق العادة فيها معجزة لسيدنا ابراهيم
عليه الصلاة والسلام بما تلاه عينا في القرآن المجيد : من قوله في خطاب
النار : « يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » وهذا كناية عن أنه
تعالى لم يخلق فيها الحرارة والاحراق بل خلق ضد الحرارة فيها وهو
البرودة وجعلها سلاماً وأماناً لبرودة مهاجرة ، فنحن معشر المؤمنين
لما أخبرنا الصادق المصدوق بهذه المعجزة آمنة وصدقنا بحصولها ،
ولا مانع يمنع من تصديقها ، وهي من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف
خالق الارض والسموات

ومن المعجزات التي ذكرت في القرآن الشريف ما جرى على
يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من شفاء الابرص ، والاكه ،
وإحياء الموتى : بأذن الله تعالى : فمن كان مؤمناً بالله العالم سبحانه ، وتصور
عجائب أعماله : من تحويل التراب الى حيوانات متنوعة لا يعتنم
من تجويز إحياء الموتى بقدرته تعالى ، وشفاء المرضى ، وإبراء الأكه

معجزة لسيدنا عيسى عليه السلام ؛ فإن هذه المذكورات من الجائزات العقلية ، وهى فى نظر العقل أسهل من خلق الحيوان من التراب ، وإبرآؤه سميعا بصيرا ، وإن كان كلا الأمرين لدى قدرة الله تعالى على حد سواء ، اذ لا يقال فى حقه تعالى : إن الشئ الفلانى سهل والشئ الفلانى أسهل عليه بل : الجميع تحت تصرفه بالسوية ، والوسائط التى جعلت أسبابا فى حدوث مثل هذه المذكورات ماهى إلا عادية ، وكذلك الزمان الذى جعل ظرفا لحدوثها ، والله تعالى قادر على خرق العادة وإيجاد هذه الأمور بدون تلك الأسباب والزمان - كما مر بيانه ، فنحن معشر الموحدين قد أخبرنا الصادق بهذه المعجزات وحصولها على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فأمنّا بها وصدقنا

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الكريم ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام أيضا تصويره من الطين : كهيئة الطير ونفخه فيه فيصير طيرا بأذن الله تعالى ، فما دمتنا نعتقد أن الله تعالى هو الذى خلق جميع هذه الحيوانات الموجودة فى الدنيا على تنوع أنواعها من التراب ، وأن الأسباب التى وضعها لتكوينها ، والزمن الذى جعله ظرفا لتصورها كل ذلك أمر عادى . والله تعالى قادر على إيجاد ذلك بدون تلك الأسباب وذلك الزمان ، فلا مانع يمنعنا من تجويز وقوع تلك المعجزة الخارقة على يد سيدنا عيسى عليه السلام بخلق الله

تعالى كما قال سيدنا عيسى عليه السلام «ياذن الله» وحيث قد أخبرنا بذلك الصادق المصدوق فقد آتانا وصدقنا بحصوله معجزة مؤيدة لدعوى ذلك الرسول الكريم

ومن المعجزات الذى أخبر بها القرآن الشريف ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام نزول مائدة من السماء لباكل منها أصحابه الخواريون رضى الله تعالى عنهم ، وذلك أمر جائز ؛ اذ لا مانع يمنع العقل من التصديق بنزول أى جسم كان من جهة السماء كما نرى الأمطار وبعض أجسام أخرى تخبر بها علماء الارصاد ، وما دمتنا نعتقد بقدرة الله تعالى على خلق جميع الأجسام . فالله سبحانه وتعالى قادر على خرق المادة ، وخلق المائدة ونزالها من السماء على سيدنا عيسى عليه السلام وأصحابه معجزة له وتأييداً لدعواه ونحن آتينا بوقوعها لأخبار الصادق بها

ومن المعجزات المذكورة فى القرآن الكريم تسخير الشياطين والريح لسيما ، وإلانة الحديد لداود عليهما الصلاة والسلام ، فكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا يحكم العقل باستحالتها داخلية تحت تصرف الاله القادر فالشياطين من جملة عبيد الله تعالى قابلون للتسخير معهورون تحت أمر خالقهم سبحانه ، والريح انما تسييرها وتصريفها فى الاكوان بقدرته عز وجل ، والحديد معدن قابل للالانة وان جرت عادة الله تعالى فى إلانته بسبب الحرارة ولكن ذلك سبب عادى

والله قاهر على إلاته بدون ذلك السبب ، فلا مانع من إيجاد الله تعالى لهذه الخوارق على يد هذين الرسولين الكريمين معجزة لهما ، وتأيدا لدعواهما الرسالة ، ونحن معشر أهل الإيمان المصدقين بقدرة الله تعالى العظيم الشأن ، وبجواز هذه الحادثات ، وبصدق القرآن المجيد قد آمننا وصدقنا بحصولها بدون شك ولا ريب وهي بالنسبة لأعمال الله تعالى المشتملة على أعجب العجائب وأغرب الغرائب لا يستبعد العقل السليم منها شيئا ، والله الهادي إلى سواء السبيل

وبقيت معجزات لارسل عليهم الصلاة والسلام سنذكر بعضها من مشهورها في الفصل الآتي لمناسبة بينها وبين معجزات سيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام

الفصل الثالث

في بيان معجزات نبينا سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وبيان بعض الطرق التي كانت برهاناً على صدق دعواه

من أعظم المعجزات التي جاء بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام
القرآن الشريف ، فهو المعجزة الباقية إلى انقضاء الدنيا ، بخلاف بقية
المعجزات فإن كلامها قد انقضى بحينه ، ولشرح هذه المعجزة العظيمة ،
والخارقة الجسيمة على وجه يفهمه الخاص والعام ، ولا يعتريه شبهة
لدى الافهام ، فاعلم أن من حكمة الله تعالى البالغة أنه قد يؤيد رسوله
بمعجزات من قبيل ما افاق وبرع فيه القوم المرسل اليهم حتى تنقطع
حجتهم عن رسولهم : باننا نجهل جسماً ما جئت به من خارق العادة
فلعلك تعلم طريقاً في ايجاده لانعلمها نحن ولا يكون في الحقيقة إلا
أمراً معتاداً : مثلاً عند ما أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام :
كان فن السحر شائعاً في القبط قوم فرعون ، ولهم فيه المهارة التامة ،
ويعلمون ما هو الممكن للبشر معرفته وصنعه مثله وما لا يكون
في طوقهم ، فلما سحر السحرة منهم الحبال والعصى بأمر فرعون ،
وصارت ترى حيات تسمى ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه
بأذن الله تعالى فقلبيها الله تعالى ثماناً عظيماً فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ،

ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت ، فخر السحرة ساجدين لله تعالى ،
وآمنوا برسالة موسى ، وصبروا على تعذيب فرعون لهم وقتلهم بالصلب
في جذوع النخل ، وما ذلك إلا أنهم - لمعرفتهم فن السحر ، وعلمهم
بمقدار ما يدخل منه في طوق البشر وما لا يدخل : أيقنوا أن تلك
الحارقة وهي انقلاب العصا ثعبانا كبيرا ابتلع الكثير من الحبال والعصى
المسحورة على صورة الحيات ثم عاد عصا كما كان ، وتلك الحبال
والعصى عدمت وتلاشت من الوجود ، ما هي من نوع السحر ، وليس
في طوق البشر الوصول إلى هذه الدرجة منه فآمنوا بانها من خوارق
العادات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسماوات ، وأجددها معجزة
لموسى مؤيدة لدعواه الرسالة ، ومن لم يكن من أهل المعرفة في فن السحر
يمكنه الاستدلال على صدق سيدنا موسى عليه السلام بسبب تصديق
أولئك السحرة له بأن يقول : إن هؤلاء السحرة لاشك أنهم متمسكون
بدين آبائهم وأجدادهم ، ومتمركزون بسلطنة فرعون ، ويخافون من
مخافته الهلاك ، ثم لهم الدراية في فن السحر وبمقدار ما يدخل في طوق
البشر منه وما لا يدخل ، فلولا أنهم علموا يقينا أن تلك الحارقة التي
ظهرت على يد موسى ليست من نوع السحر ولا يدخل في طوق
البشر الوصول اليها لما آمنوا بموسى ، وتركوا دينهم ودين آبائهم وزهدوا
في حزة فرعون ، ورضوا بالتعذيب والصلب في جذوع النخل . فقالوا
لفرعون : « فاقض ما أنت قاض » ، فلما تقضي هذه الحياة لدنيا ، فآمنهم

بموسى مع ذلك كله أعظم دليل على صدقه بدعوى الرسالة ، وأن تلك الحارقة أظهرها الله تعالى على يده معجزة شاهدة بصدقه ، وأما من لم يرد الله تعالى فيه خيرا كما وقع لفرعون فإنه ضل عن هذا الاستدلال واتبع طريق الشبهة ، وقال للسحرة : « أنه » يعنى موسى (كبيركم الذى علمكم السحر) وهى شبهة باطلة ، إذ لا يخفى أن موسى من بنى اسرائيل الذين كانوا مستعبدين للاقباط قوم السحرة أصحاب السلطنة والملك فلا داعى يدعو أولئك السحرة إلى مخالفة فرعون باتباع موسى ، ولو فرض أنه هو الذى علمهم السحر كما قال فرعون ايصدق العقل أنهم يقدمون على ذلك لمجرد تعلمهم منه ، ويقبلون الذلة بعد العز ، والقتل والصلب عوض الحياة ، وهم عقلاء يميزون الخير من الشر ؟ فلو لا اعتقادهم الجازم بأن تلك المعجزة ليست من نوع السحر ، وهى دالة على صدق موسى فى دعوى الرسالة ، وانهم وان فارقوا عز الدنيا وعدموا حياتها الفانية ، فسيحوضون بمر الآخرة وحياتها الأبدية ، لما أقدموا ذلك الاقدام ، وقبلوا ما قبلوا : فشبهة فرعون أضعف من بيت العنكبوت ، وقد جاء بها : إما تكبرا وعنادا ، وإما جهلا وشقاء ، وكذلك لما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان فن الطب شائعا فى بنى اسرائيل ، فكان من حكمته تعالى أن جعل الكثير من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب ، فأبرأ على يديه الأبرص ، والآفة ، وأحيا الموتى ، فأهل المعرفة فى علم

الطب لا يحتاجون في تصديق رسالته إلى أمر صعب ، بل من الواضح لديهم أن يقولوا: إنا نعلم أن فن الطب ومقدار ما يمكن للإنسان أن يبلغه فيه من الأعمال وما لا يمكنه: فيدخل في طاقة الأطباء الخذاق أن يشفوا الأبرص، لكنه بعالجة مخصوصة مع مرور زمان مخصوص، وأما شفاؤه في الحال بمجرد لمسه ، أو الدعاء له فهذا : ليس في طوقهم، ويمكنهم أن يشفوا مرض الأعين الذي يكون عرضيا ليس بخلا بجوهر البصر ، وأما شفاء الأكمه عديم البصر : فهذا ليس في طوقهم ، وأحياء الموتى أيضا : ليس في طوقهم ألبتة ، وحيث إن عيسى قد أتى بهذه الخوارق التي ليست داخلية في طوق البشر كما يظهر لنا من الاطلاع على فن الطب فيكون ذلك دليلا على صدق دعواه الرسالة ، إذ أن تلك الخوارق ليست إلا بإيجاد الله تعالى القادر على كل شيء ، أجراها على يد عيسى معجزة له مؤيدة دعواه ، وأما غير أهل المعرفة في فن الطب فلم أن يستدلوا على صدق عيسى بتصديق هؤلاء الأطباء : نظير ما استدل من آمن بموسى ولم يكن من أهل المعرفة في فن السحر ، لما شاهدوا إيمان السحرة به

إذا علمت جميع ما قررناه: فاعلم أنه قد نقل إلينا بالموثر المفيد لائقين، أي نقل إلينا الجماهير الكثيرة الذين لا يحصى عددهم، ويحيل العقل تواطؤهم على الكذب، كالحائنه متلا توطئ الناس جميعا على ألا يخبروا بوجود مكة والحال أنها غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذبات . وهم جبراً عن

الجاهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوا سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ورأوه رأى العين ، وأحاطوا بأحواله وبما جرى له في مدة حياته مع
الأمم ، حتى تم له تصديق الألوف من أتباعه بكل ما جاء به أنه بعد
ما مضى له من العمر أربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق
والأمانة حتى دعوه « محمدا الأمين » ولم يجر له في تلك المدة تعلم
القراءة والكتابة ، ولم يجتمع مع أهل هاتين الصنعتين اجتماعا يمكنه منه
أن يتعلمهما منهم ، ويؤهله ذلك لاكتساب جملة معارف الأمم ، وشرائع
الاقدمين ، وقوانين الممالك ، ولم يثر عليه في تلك المدة أنه كان يعاني
شيئا من ذلك ، وكذلك لم يجر له في تلك المدة ممارسة صناعة الفصاحة
والبلاغة ، فلم يكن له عناية بالشعار ، والخطب ، والرسائل العربية :
لا قولاً ولا رواية ، ولم يكن مولماً بمداورة الفصحاء ، ومغالبة البلغاء
من كل ما يقوى فيه ملكة تينك الصنعتين الشريفتين ، ويؤهله الى
بلوغ الدرجة القصوى فيهما : قام بين جماهير العالم من عرب وعجم ، مع
قلّة ذات يده ، وفقد الناصر والمعين : وليس في آباءه سبق سلطنة قد
زالت فيظن به انه يريد استردادها بالتحيل على الرئاسة ، فادعى أن
الله تعالى قد أرسله الى الناس كافة ليبلغهم ما شرعه لهم : متكفلاً بنجاحهم
في الدنيا والآخرة ، وأن هذا الترع يناسب زمانه الذي أرسل فيه
في مضى هذه الدنيا . وهو ناسخ لكثير من أحكام شرائع الرسل الذين
رسلوا قبله في الزمان الماضي الذي كانت تلك الاحكام المنسوخة

تناسبه ، وانه ينهائهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرّة بصالحهم ، ورثوها عن آبائهم ، أو زينها لهم الشيطان ، وأقبح شيء منها عبادة الأوثان ، والنيران ، والأحجار ، والأشجار ، وأنه يأمرهم بتوحيد الله تعالى ، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، وإفراده تعالى بالعبادة ، وأداء شكره على نعمه التي أنعمها عليهم ، وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم : كخضوعهم له في الصلوات الناشئة عنه تهذيب نفوسهم ، ووصلتهم مع خالقهم بزيارتهم الامكنة التي وعدم عندها فقران السيئات ، الى غير ذلك من كل ما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، فعند ما سمع منه أولئك الجماهير هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ، وتحول له الأعداء والموافقون أخصاما ألداء ، ثم أخذوا في مجادلته ومخاصمته ، وجرحهم منهج المجادلة إلى طلب الحجة : وصار كل منهم يطلب منه برهانا على صدق دعواه . ويتمحل له التعجيز في كل ما يهواه ، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ينصب لهم الدلائل ، وينجيب منهم كل سائل

ومن أعظم الحجج التي ستند في انبيات دعواه اليها ، وجعل معظم اعتمادهم عليها . أولاد عليهم من مجموع كلاله عربي يسميه « قريش » ويقول : إنه من عند الله تعالى أرسله به اليهم ، وهم مشككون على التصريح بأنه رسول الله تعالى الى الناس كافة صادق في كل

ما يبلغه عنه تعالى وهو متكفل ببيان الشرع الذي شرعه الله تعالى لهم ، وأنه يتحداهم بأقصر جملة منه يسعيها سورة بمعنى أنه يستدل على أنه من عند الله تعالى بعجز فصحاء أهل اللسان العربي وبلغائه عن الاتيان بما يساوى أقصر سورة منه : بفصاحتها وبلاغتها ، وقد كان في الامة العربية أمراء الفصاحة والبلاغة المريتين الرائج في ذلك الزمان سوقهما بين أهل تلك الامة ، فكانتا أعظم علومهم ، وأكرم مفارخهم ، وهم أكثر الناس شاعرا وخطيبا ، وفيهم العالمون بأساليبهما ، الحاملون أعلامهما ، والمحيطون بأسرارهما ، وبما هو في طوق البشر من مراتبها وبما ليس في طوقهم : ولم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم يصفهم بالضعف والقصور عن معارضة أقصر سورة من ذلك القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، منوها بذلك في كل محفل ، مشهرا له في كل جحفل ، ومع ذلك يصفه أفعالهم في عاداتهم وعباداتهم ، ويطن في معبوداتهم التي عبدوها بضلالاتهم ، فأخذ علماء الفصاحة والبلاغة منهم وأمرأؤهما بينهم يتأملون في ذلك القرآن ، ويسبرونه بمسبار النبان . ويتدبرونه تدبر الناقد البصير عسى أن يتبين لهم طريق أنوار حقيقته ، ينطال حجته ، فلا وربك ما وجدوا ولن يوجد اليقين . لأن كل انقضاء الزمان ، مع وفور المصحاء والبلغاء .

الربيع . لأن هذا على رؤوس الاشهاد : والقرآن . في هذه آيات ، وهريتي في كل ناد ، لكن ظهر لهم أن هذا

القرآن قد بلغ مرتبة في الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية، ولو أن أحدا كابر وعارض لجاء بالفت البارد، وأصبح سخرية عند الصادر والوارد، فتحقق لديهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه : فأقر من وفقه الله تعالى منهم بمعجزهم بل بمعجز البشر، وبأن ذلك دليل على أنه من عند خالق القوى والقدر، وصدقوا دعوى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة من الله، وتركوا عاداتهم القبيحة، وعباداتهم الباطلة، واعتنقوا ما شرعه الله تعالى لهم واجتبه، ثم إن كثيرا ممن لم يكونوا من أهل الفصاحة والبلاغة : من الأمة العربية أو من سوام من الأعاجم وجد لهم من الاستدلال بمعجزة القرآن على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بدعوى الرسالة : ما يقنع أفكارهم، ويحملهم على اعتناق دينه الشريف، وذلك بأن يقولوا : إن محمدا عليه الصلاة والسلام قد قام بدعوى الرسالة فريدا وحيدا، مخالفا لجميع العالم في عاداتهم وعبادتهم : لا ناصر له ولا معين، وقد ادعى عجز فصحاء العرب، وبلغائهم المشهود لهم بكمال الفصاحة والبلاغة عن معارضة أقصر سورة من قرآنه الذي جاء به، وهؤلاء مع تمسكهم بعباداتهم وعباداتهم الموروثة عن آباؤهم، والمألوفة من لدى نعومة أظفارهم، ومع تعصبهم لعشيرتهم. وبنى جلدتهم، وإس لدى محمد من حطام الدنيا ما يمت على رغبتهم في اتباعه. ولا مد صاحب عصبية وقوة تخيفهم من بطشه. لأنه في أول دعواه عذره

الأهل والأرحام ، بل جميع الأنام ، فقد أقر أولئك الفصحاء البلغاء
بمعجزهم عن معارضة أقصر سورة من قرآنه ، وأن درجة الفصاحة
والبلاغة المحتوى عليها لا تبلغها الطاقة البشرية ، وصدقوا بدعواه الرسالة
من عند الله تعالى ، فلولا أنهم قد تحقق لديهم - على ما عندهم من كمال
المعرفة في فن الفصاحة والبلاغة أنهم عاجزون عن معارضة قرآنه ، وأن
ذلك القرآن لم يكن الا تيان به في طوق البشر ، وهو دليل على أنه
من عند الله تعالى لما آمنوا بمحمد وتركوا عاداتهم وعباداتهم الموروثة
المألوفة ، ولا رغبة هناك لهم في حطام ، ولا خوف من انتقام ، ولا
يخفى : أن أصعب شيء على العاقل مفارقة دينه الذي يرجو به النجاة
في الدنيا والآخرة ، وأصعب شيء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التي
ألفها وتلقاها عن أسلافه ، حتى : ان البعض وان استشعر برداءة
عوائده يصعب عليه مفارقتها ، وتحكم عليه نفسه بملازمتها ، فالعاقل
لا يفارق دينه الا اذا تيقن النجاة في دين سواه ، ولا يهجر عوائده
لا سيما الموروثة المألوفة الا بسبب قوى قاهر ، فحال هؤلاء القوم
الفصحاء البلغاء مع محمد وإيمانهم به على هذا الوجه هو دليل لنا كاف
لنصديقنا إياه فيما ادعاه من رسالة من عند الله تعالى ، وليس إيمان
همؤالا - الفرقة بالتفايد - الفرقة الذين هم أهل معرفة بالفصاحة والبلاغة ،
بإيمانهم بعزيمتي استدلالى - كما هو طاهر ، ولهذا الطريق وأمثاله

كلفت الاعاجم بالايان برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام وان لم يعرفوا
لسانه العربي

ثم ليعلم : أن في القرآن استدلالا على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى
عليه وسلم في دعوى الرسالة من طريق غير طريق اشتماله على الفصاحة
والبلاغة اللتين أعجزتا فصحاء العرب وبلغاهم ، وهو أيضا معجزة من
هذا الوجه : خارقة للمادة لا يمكن البشر الاتيان بها ، وبيان ذلك : أنه
إذا تأمل فيه أهل الخبرة في نقد الكلام ، ومعرفة الصفات الفاضلة
فيه ، وذوو المعارف والفنون ، والسياسات ، وتدبروا أساليبه ومحتوياته ،
ظهر لهم بالنظر الصادق : أن هذا القرآن قد وجدت فيه خواص
قاضية ، وصفات كاملة : لا يمكن في العادة اجتماعها في مجموع كلام مهما
تأنق فيه واضعه ، واتسع اطلاعه على الماضي والحاضر والمستقبل ،
وأحوال الأمم في شؤونها أجمع ، والاحاطة في جميع الفنون ، والآداب ،
والحكم ، والسياسات ، وتحري فيه عدم المناقضة والتضارب ، وحسن
الاسلوب ، مع الانفراد عن الاساليب المبهودة عند العرب إلا أن
يكون القائل : هو الله تعالى القادر على ذلك كله ، وعلى جمعه في كلام
يريد جمعه فيه ، وذلك أنهم يمدون هذا القرآن يخبر عن غيوب
مستقبله تأتي طبق أخباره : كوعده أتباع محمد عليه السلام بدخول مكة
آمنين ، فجاء الأمر كذلك ، ويخبر عن قصص الاولين وسير الملقده بين
كما هي حكاية من شاهدها وحشرها . ويخبر عن الخيام من غير أن

يظهر ذلك من أصحابها بقول أو فعل ، كما يعلم من حوادث حدثت
لبعض أتباع محمد عليه السلام ولبعض أعدائه كما جاء في التفسير ،
وكتب الأحاديث ، وهو مع اتساع مجاله في كل فن : من أخبار ،
وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وأخلاق ، وآداب ، وترغيب وترهيب ،
ومدح الأخيار ، وذم الفجار ، وتحذير من قبائح السجيا ، ومواقع
الدنيا ، وتدبير السياسات ، ومراعاة الأوداء ، ومداغمة الأعداء ،
ومجادلة الأخصام ، وتبكيك الطغام ، وإقامة الدلائل على وجود الباري
تعالى وتوحيده ، وعلى الحشر والنشر ، ودفع الشبه ، وإزالة الريب ،
ووصف دار النعيم وأحوال سكانها ، ودار الجحيم وأهوالها ، ووصف
عالم السموات ، ومافى العالم العلوي من الآيات : من كواكب ،
وأقطار ، وسحاب ، وبروق ، ورعود ، وعجائب ، ووصف الأرض
وجبالها ، وسهولها ، وبحارها ، ونباتاتها ، وما اشتملت عليه :
من نباتات ، وحيوانات ، ومعادن ، وأزهار ، وأثمار ، وأشجار ،
وأطيار ، وظلمات ، وأنوار حتى يصح أن يقال : إنه لم يبق علما
من علوم الأوائل والآخر إلا صرح به أو أشار إليه ، على أصاليب
متنوعة ، وطرائق مبتدعة : لم يقع فيه تناقض ، ولم يتغلبه تضارب ،
خائفا من جميع العيوب . خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب
ليس ، من غير أن يكون عليه ولا يتم يقتدى به ، فلا هو من نوع
المتساهل ، ولا من الغريب البدوي ، ومع ذلك فهو في القول

مستحسن ، وفى النفوس مستطعم ، وفى الآذواق مستعذب ، وفى
القلوب محبوب ، وللإسماع مألوف : كلما تكرر حلا ، ومن أى الأقوال ■
سمع علا وغلا ، ولا يصح فى العقل السليم أن تجتمع كل تلك الصفات
فيه اتفاقا ، ولا يصدق بالصدفة فى ذلك الفكر الصحيح ، فمن الواجب
فى حق هؤلاء التاملين فيه ، والمتدبرين فيما يحويه ، واللائق بأنصافهم
بعد ذلك أن يقولوا : إن الذى ظهر لنا وتحققنا من اجتماع تلك الصفات
فى هذا الكلام البديع أنه كلام تعجز عنه قوى البشر ، ولو كان بعضهم
لبعض ظهيرا ، قاتين محمد عليه السلام به وهو أمى - ومن حال عادة
أن يأتى به أكبر المصنفين وأحدث الفلاسفة ، وأعظم المؤرخين ، وأكبر
السياسيين : دليل واضح على أنه من عند الله تعالى أرسل به محمد ليكون
معجزة له تدل على تصديقه إياه فى دعوى الرسالة

واعلم أن هذا الطريق فى الاستدلال على كون القرآن معجزة
أيد الله تعالى بها سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد هدى الله
تعالى به كثير من أنبائه عليه الصلاة والسلام ، كما هدى الطريق
الأول . وهم احتواه القرآن على الفصاحة والبلاغة اللتين معجز
نصف حاء العرب وبلغاؤهم بسببهما عن معارضة أقصر سورة منه ، وهما
بذل كل من هذين الطريقين سهل السبك عن أهل العرب من
الفصاحة - بلغة - ومن هجاء المعرفة بفضائل الإسلام لا
يريد إلا أن يثبت أن الله تعالى والآن . . .

الفضيلتين : فله الاستدلال بخضوع أهلها وتسليمهم بتلك المعجزة الخارقة للمادة حتى فارقوا دين آبائهم وعوائدهم ، واتبعوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم في دينه وهداهم كما تقدم شرح ذلك قريبا ، وبذلك ظهر : أن معجزة القرآن التي أعطيها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هي معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وبقية المعجزات — وإن يكن قد انتفع بها من شاهدها ممن كان في عصر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانتفع بها من نقلت اليهم بالنقل الصحيح : كاهل الأعصر التي بعد الرسل — لكنهما لم تبق مشاهدة إلى الآن وبعد الآن ، فلمعجزة القرآن هذه الخاصة من بقاء مشاهدتها على كرور الزمان ، وهذا من جملة ما أكرم الله تعالى به سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وخصه به عن سائر الرسل الكرام ، لكن الهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي ذكرت في القرآن الشريف ، والحديث المنيف ، انشقاق القمر فرقتين بطلبه عليه السلام من ربه حينما طلب منه المشركون ذلك فرأى انشقاقه الكثير من أهل مكة إسلاما وشركاين ، وورد إلى مكة جماعات من المسافرين الذين كانوا يبيدون عنها ولكن أفق أمكتهم مساو لا فقها ما جبرر أنهم رأوا انشقاق القمر في تلك الليلة ، وعدم رؤية أهل الأرض جميعا تلك الحادثة لا ينافي وقوعها ، لأن القمر بسبب

اختلاف الآفاق التي يراه منها أهل الأرض لا يظهر على الناس جميعاً في آن واحد بل كل وقت يظهر لأهل أفق ويختفي عن غيرهم ، كما يعلم من فن الهيئة ، وهذه المعجزة من يسمع بها ، ويكون مؤمناً بوجود الإله القادر ، ويتصور أن انشقاق القمر من الجائزات العقلية لا يتمتع عن التصديق بوقوعها بعد صحة نقاها . وتوضيح جوازها : أن القمر ما هو إلا جسم من جملة الأجسام القابلة للانقسام والاتحام وكما يوجد في أرضنا من انشقاق جبال عظيمة ، وحدوث وديان لم تكن ، والاتحام جبال كانت منفصلة ؟ وهذه الحوادث الأرضية وإن تكن جرت عادة الله تعالى بإيجادها بأسباب يحدثها الله تعالى : من نحو الزلازل ، والصواعق ، والأمطار الغزيرة ، ولكن تلك الأسباب ما هي إلا عادية والله تعالى قادر على إيجاد تلك الحوادث بدون تلك الأسباب ، كما يعلم من كمال قدرته سبحانه وتعالى ، والقادر على التصرف بهذه الأجسام الأرضية تلك التصرفات هو قادر على التصرف في القمر بالانشقاق ونحوه ؛ إذ لا فرق بينه وبينها في الجسمية ، وقبول الانشقاق والاتحام ، إلا أن القمر أكبر منها والكبير والصغير : لا دخل له في قبول ذلك وعدم قبوله في جانب قدرة الله تعالى ، نعم إن الروايات الصحيحة التي نقل لنا فيها ثلاث المعجزة نفيد أن القمر انشق فرفتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، ولمراد بذلك أنه صار يرى الراى أن فرقة منه فوق الجبل أى في أفقه ، لا يحدنى شياً ركبت حتى نفس

الجبل وفرقة دونه أى فى مقابلته لا بمعنى أنها تحت الجبل ، وهكذا يقول الواحد منا : قد رأيت القمر فوق الجبل وخلقه وفوق البحر والحال أن القمر ليس كذلك ، وإنما مراده التعبير عن كيفية الرؤية له فلا يقال : إن القمر جسم كبير جدا دون أرضنا بقليل على ما يقوله علماء الهيئة ، فلا يمكن أن فرقة منه توضع على نفس جبل صغير من جبال الأرض ويسمى ذلك الجبل وفرقة منه تكون تحت الجبل بالفعل ، لأن هذا غير مراد - كما علمت ، وإنما نصت الرواية على كيفية هذه الرؤية لتفيد أن الفرقتين من القمر قد تباعدتا عن بعضهما حتى لا يكون للمشركين اشتباه فيما لو كانتا متقاربتين فيقولون : إن رؤيتنا انشقاقه هي من غلط الحس والتخيل الذى لا أصل له فى الواقع ، ومن المعلوم : أن القادر على شق القمر فرقتين هو قادر على تباعدهما ذلك التباعد ثم ضمهما لبعضهما ، ثم من غريب ما يحكى عن بعض شروح المدونة أن فرقة منه نزلت لجنبه وخرجت من كه عليه السلام فهذه الرواية غريبة : لا يجب علينا الايمان بها ، لعدم قوة سندها فلا حاجة لنا فى تأويلها وتطبيقها على قانون العقل ، ومع هذا فيمكن تطبيقها بأن تلك القطعة كانت صغيرة قابلة للأنزول والخروج من كه ، إذ لا صراحة فى تلك الرواية بأنها كانت نصف القمر ، وهذا لا يصح التمسك به ، وتدرة الله تعالى صالحة لذلك ، ونحن معشر المسلمين نؤمن بان انشقاق القمر معجزة لنبينا عليه الصلاة والسلام بالنقل

الصحيح ، وهو من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : آمنا وصدقنا بوقوع ذلك بلا ريب

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوف الشمس مدة من الوقت وردها بعد المغيب ، وقد روى هذا في بعض الأحاديث ، وروى أيضا : أن الشمس وقفت عن المغيب ليوشع بن نون عند ما كان مع بنى اسرائيل يقاتل الجبارين ، وذلك معجزة له أيضا ، والاحاديث في وقوف الشمس وردها وإن كانت آحادية بمعنى أن نقلها لم يكن متواتراً قطعى الثبوت بحيث يكفر منكره ، لكن الايمان بذلك هو الموافق لشأن المسلمين ، والأسلم لهم في دينهم ، فنحن نؤمن به ونصدق ، ووقوف الشمس وردها بعد المغيب وإن كان في نفسه أمراً عظيماً جداً ، ولكنه من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ولا يعد عظيماً بالنسبة لعظيم قدرته سبحانه ، وتوضيح ذلك أنه سواء اعتبرنا أن الشمس هي التي تسير أو أن الأرض هي التي تدور على محورها وتغرب بأوجها على الشمس كما تقول به الهيئة الجديدة ، فكلا الأمرين لم يكن إلا بقدره الله تعالى ، فهو الذى يسير الشمس أو يدير الأرض مقهورة بقدرته وطاقاته ، والذى يكون قادراً على تحريك كل من هذين الجسمين العظيمين هو قادر على إيقافهما ساعة من النهار أو على عكس حركتهما مدة من الوقت ثم إعادة الحركة كما كانت ولا يلزم على ذلك محال ، وإن قيل على

فرض تسليم القول بالهيئة الجديدة ، وأن الارض هي التي تدور
لوقفت الارض عن حركتها أو انعكست حركتها يلزم أن يبقى ماء
البحر آخذاً بحركة الاستمرار فكان يفيض على اليابسة ويغرق أهلها ،
قلنا : ان القادر على إيقاف الارض أو عكس حركتها هو قادر على
سلب حركة الاستمرار من ماء البحر وجعله تابعا للارض في وقوفها
وعكس حركتها فلا يفيض حينئذ على اليابسة ، ولا يلتفت إلى قول
بعض الملحدين : انه ليس من حكمة الخالق تعالى أن يوقف ذلك
الجسم الكبير المبني حركته على ناموس عظيم في الكون وهو ناموس
الجاذبية ، كما يقول أهل الهيئة الجديدة لأجل غرض واحد من البشر
وهو محمد أو يوشع عليهما السلام ، لأننا نقول : لم يكن ذلك الصنع
منه تعالى لأجل مجرد غرض واحد من البشر وإنما هو لحكمة بالغة ،
وهي إظهار المعجزة الخارقة للعادة التي ينشأ عنها اعتداء ألوف من
الخلق ، ويرجمون بذلك من الكفر الذي يهلك نفوسهم إلى الايمان
الذي يحييها الحياة الابدية ، وينشأ عنها تثبيت ألوف وتمكينهم بالايمان
ممن آمنوا قبل ذلك ، ويبقى ذكرها ونقلها بين الخلق يتحدث بها الجيل بعد
الجيل ، ويتنفع بنقلها من أراد الله تعالى هداه ، ويتصور بها عظمة قدرته
تعالى وعجيب أعماله : فهذه الحكمة العظيمة توازي في العظمة حصول
تلك الخارقة وتفوقها ، ويليق بها أن تحصل تلك الخارقة لأجلها ،
على أن ذلك الملحدين نظر إلى مجرد عظمة تلك الخارقة ولو قابلها بعظمة

قدرة الله تعالى لما وجدها شيئاً يذكر ، وهذه الحارقة وغرض واحد من البشر عند الباري تعالى على حد سواء في أن كلا منهما تحت تصرفه ومشيتته ، ولا يعظم شيء منها لدى عظمته ، وإن كان في نظرنا القاصر أننا نجد الفرق بينهما عظيماً وهما عند الله سيان في الجواز والامكان ، ثم إنه في بعض الروايات التي نقلت تلك المعجزة ما يفيد أن الرسول طلب وقوف الشمس أو أعادتها ، فلا يقال على فرض تسليم رأى الهيئة الجديدة بدوران الأرض : أنه كان الصواب في حق ذلك الرسول أن يطلب وقوف الأرض أو عكس حركتها عوضاً عن طلب ذلك في الشمس ، لأننا نقول على فرض تسليم ذلك : فلا مانع من أن يكون الرسول يعلم حقيقة الأمر ولكنه طلب ذلك في الشمس بناء على الظاهر والجاري في رأى الشعب والمألوف بينهم في الاستعمال ، والله سبحانه يعلم المقصود من طلبه ولا يكون ذلك غلطاً من الرسول ، وهكذا ترى أهل الهيئة الجديدة يجرّون في كلامهم على ظاهر ما يبدو لأهل لغتهم ، ويجري في استعمالهم ، فيقولون : طلعت الشمس وغربت ، وهم يعتقدون وقوفها وحركة الأرض ولم نسمعهم يقولون : طلعت الأرض أو غربت أو وصلت الأرض لمقابلة نور الشمس أو فارقت ، وكل ذلك منهم على حسب الشائع في الاستعمال وظاهر ماتعطيهِ الشهادة ، إذا علمت ماقررناه ، واندفعت عنك تلك الشبهة بما حررناه ، فاعلم أننا معشر المسلمين قد آمنّا بهذه المعجزة

إذا لامانع يمنع من وقوعها ، والله قادر على ايجادها معجزة مؤيدة
لرسله الكرام ، يهدي ويثبت بها الآلوف من الأنام

ومن معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام التي نقلت إلينا
في الأحاديث الشريفة، نبع الماء من بين أصابعه فاستقى منه المدد الكثير،
وتكثير الطعام القليل حتى شبع منه الجهم الغفير ، فمن يعتقد بوجود
الاله سبحانه وقدرته على خلق الاجسام وابرازها من العدم أو قلبها
من صورة إلى صورة ، فلا مانع يمنعه من تصديق هاتين المعجزتين ،
وتوضيح ذلك : أنه لا مانع أن الله تعالى عند طلب الناس من الرسول
الماء خلق سبحانه الماء أو قلب الهواء ماء وصار يبرزه للحاضرين من بين
أصابع رسوله عليه الصلاة والسلام حتى اكتفى المستقون للماء، وقلب
الهواء ماء هو داخل تحت قدرة الكيماويين في كسبهم ، وقد ورد
قريبا في المجلات العلمية أنهم اكتشفوا قلب الهواء سائلا فما بالك
بقدره خالق الهواء والماء وأهل الكيمياء ؟ وكذلك : لا مانع أن يخلق
الله تعالى طعاما من جنس الطعام القليل الذي كان في حضرة الرسول
ويضيفه إليه ولم يشاهد الحاضرون ، إلا أن الطعام القليل قد كثر
وشبع الكثير منه ، فحيث كان جميع ذلك من الجائزات العقلية وقدره
الله تعالى صالحة لابرازه ، وقد نقل لنا وقوعه معجزة لنبينا صلى الله
تعالى عليه وسلم فقد آمنا وصدقنا به معشر المسلمين

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام شفاء الامراض المضالة على

يديه بمجرد لمسه لأصحابها أو دعائهم، وردعين أحد أصحابه بعدما قلت
فمادت أحسن ما كانت ، وإحياء الميت بمجرد دعائه ، وهذه الخوارق
قد نقات لنا بالأحاديث الشريفة فأمنائها وصدقنا ، لأنها جائزة
وداخله تحت تصرف قدرة الله تعالى وهو الذى يوجدها على يد
رسوله معجزة له ، وتوضيح ذلك : أن شفاء الأمراض — وإن
كانت عادة الله تعالى فيه هو أن يكون بأسباب وفى زمن ممتد ،
لكن ذلك أمر عادى والله قادر على إبرازه بدون ذلك خرقاً للعادة —
كما مر بيانه وإرجاع العين المقلوعة وإن لم تجر العادة فيه فإنه من
الجائزات العقلية ، ولا يحكم العقل باستحالته ، وإنا نرى كثيراً من
الاطباء يصلون بعض أجزاء الجسم الحيوانى بعد انفصاله ويلتحم بواسطة
العمليات الجراحية ، ورد العين وإن لم يكن داخلاً تحت كسبهم
وقدرتهم ولكنه داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى الكاملة التى
لا تقاس قدرتهم بها ، وإحياء الميت فهو من الجائزات العقلية وإن
لم تجر العادة به ، وأن القادر على جعل الجماد حيواناً وإعطائه الحس
والحركة والادراك هو قادر على إحياء الجسم الحيوانى بعد أن تقارقه
الحياة ، فمن يتصور عظمة قدرة الله تعالى وعجائب أعماله : لا يمتنع
من تصديق وقوع هذه الخارقة مادامت تنسب لفعله تعالى

ومن معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم نطق الطقل الرضيع ،
والحيوان الأعجم ، والشجر ، والحجر ، وشهادتها له بالرسالة ، وقد

نقل لنا هذا في الأحاديث الشريفة ، وورد في القرآن المجيد نظيره ، وهو كلام المهدد والخلة لسيدنا سليمان عليه السلام ، وهذه الخوارق هي من المجازات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، وبيان ذلك أن كل شيء في هذا الكون : من أجسام ، وأعراض : كالاصوات وغيرها هو بخلق الله تعالى ، فكلام الإنسان الكبير هو لا شك بخلق الله تعالى ، ونفس طبيعته الحيوانية لا تستلزم صفة الكلام ، إذ لا فرق بينها وبين طبيعة الحيوانات العجم في الحيوانية ؛ بل لا فرق بينها وبين الجمادات في أصل الجسمية ، كما أن صورته لا تستلزم صفة الكلام أيضا ؛ إذ قد يوجد من أنواع القردة ما يشابه الإنسان في الصورة تمام المشابهة إلا في اكتساء جلده بالشعر وهذا لا يكون فرقا موجبا لتخصيص الكلام بالإنسان الكبير ومع ذلك فلا يتكلم ذلك القرد ، ولا دليل على وجوب انحصار صفة الكلام بالإنسان بل قد وجد بعض الحيوانات البعيدة المشابهة عنه قابلة لتعلم الكلام وذلك كالطير المسمى بالببغاء ، وفيما قررناه : قد ظهر أن نوال الإنسان لصفة الكلام ما هو إلا بتشريف الله تعالى له بها وإن قيل : يمكن أن يكون في الإنسان الكبير شيء خفي علينا ولم يوجد في غيره هو الموجب له صفة الكلام ، ولعله الذي يسمى بالقوة الناطقة وبعد قصلا للإنسان أو تكوين خاص في مخه كما يقول المتأخرون ، قلنا : حصر الموجب للكلام في هذين غير مسلم ، على أن الثابت عندنا أن مثل هذا

الموجب سبب عادي والله قادر على خلق الكلام بغير واسطة ، فالقادر على خلق صفة الكلام فيه قادر على خلقها في غيره : من الطفل الرضيع ، والحيوان الاعجم ، والجماد ، وان كان هذا خلاف العادة قاله تعالى يخرق به العادة معجزة لرسوله : فيخلق تلك الالفاظ التي وجدت من ذلك الشيء الذي لم نعهده يتكلم ويصدرها عنه ويسمعا الحاضرون فنحن معشر المسلمين قد آتانا بهذه المعجزات لانها من الجائزات الداخلة تحت قدرة رب الارض والسموات

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام التي وردت الاشارة اليها في القرآن المجيد ، وبينها الحديث الشريف : رمية صلى الله تعالى عليه وسلم وجوه الكفار يوم الحرب بكف من تراب فأصاب عين كل واحد منهم شيء من ذلك التراب وانهزموا ، وهذه الخارقة من الجائزات العقلية ، اذ لا مانع من وصول شيء من ذلك التراب لعين كل واحد ولكن : ليس في قدرة أحدهم الناس أن يوصله هذا الا يصل ويوزعه على أعينهم هذا التوزيع ولكنه في قدرة الله تعالى ، فهو قادر على فعل ذلك معجزة لرسوله عليه السلام ، وقد امتن عليه بهذه الخارقة التي صرف بها عنه وعن أصحابه الأعداء فقال في القرآن الشريف مخاطبا له عليه السلام بقوله : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » يعني وما رميت حقيقة وأوصلت التراب الى كل عين من أعين الكفار حين رميت ظاهرا ، لان ذلك ليس في قدرتك ولكن الله هو الذي رمى حقيقة وأوصل حيات التراب لأعين أعدائك المحاربين . فنحن

معشر المؤمنين : نؤمن بحصول هذه الخارقة معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اخباره بالمغيبات سواء كانت حاضرة في الزمان غائبة عن العيان أو كانت مستقبلية ستأتي ولو بعد مئات من السنين ، وهذه المعجزة بلغت الأحاديث في كثرة حدوثها حد التواتر المعنوي ، وأفراد حوادثها بحر لا ساحل له ، أما إخباره عليه السلام بالمغيبات التي كانت حاصلة في زمانه وغائبة عن عيانه فذلك : كإخباره بوقاة النجاشي ، وبالظعينة الحاملة الكتاب إلى قريش ، وفي كتب الأحاديث من ذلك شيء كثير جدا تضيق عنه الصحف : فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إليها فيرى العجب العجيب؟؟ وأما إخباره بالمغيبات المستقبلية فهو شيء كثير الحوادث ، منه ما وقع في حياته ، ومنه ما وقع بعد وفاته بعد أزمنة قليلة أو متطاولة ، ومنه ما سوف يقع ، ولنذكر شيئا من هذا النوع مما ورد في القرآن المجيد ، أو الأحاديث الشريفة ، على وجه الاختصار يظهر به الحق بلا إنكار . فنقول : -

من ذلك ما ورد في القرآن الشريف أن أصحابه يدخلون المسجد الحرام آتئين ، وكانت مكة حينئذ في أيدي المشركين وهم محاربون له ولا أصحابه فدخلها هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام - وحقق الله تعالى لهم ذلك ، ومن ذلك قوله في القرآن : « غابت الروم في أدنى الأرض ، وهم من

بعد غلبهم سيقبلون في يضع سنين ، فكان الأمر كذلك ، فبعد أن غلبت فارس الروم غلبتهم الروم في يضع سنين ، أي ما بين الثلاث سنين إلى العشر كما أخبر القرآن ، يعلم ذلك من السير النبوية ، والتاريخ ، وفي القرآن جملة أخبار غيبية يعلم بيانها من كتب التفسير

ومن ذلك ما ورد في الأحاديث الشريفة كما رواه الشيخان ، وأصحاب السنن ، والحفاظ الأئمة : كأحمد ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك : من أنه عليه السلام أخبر أصحابه بالظهور على أعدائهم ، وبفتح مكة ، والقدس الشريف ، والشام ، واليمن ، والعراق ، وظهور الأمن في الممالك الإسلامية حتى تصير المرأة تسافر من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله تعالى ، فكان ذلك - والله الحمد - في حياته وبعد وفاته عليه السلام ، وأخبرهم بما يفتح الله تعالى على أمته وما يأتون من زهرة الدنيا وقسمتهم كنوز كسرى وقبصر فكان ذلك ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقبصر وقسمت خزائنها بينهم وأخبرهم أنه يغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحيفة وترفع أخرى ، يعني تفيض عليهم الدنيا ويأخذون بالتتميم بعد كشف العيش الذي كانوا فيه ، وكان الأمر كذلك ، وهذا ، وضع صحيفة ورفع أخرى : لتحقيق في كيفية تناول الطعام الذي يسمى في اللغة التركية « قالدر » وأخبرهم أنهم يقاتلون الخزر والروم ، وبذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ، ولا فارس بعده وكان الأمر على ما أخبر ، وأخبر أنه زويت له الأرض فأرى مشارقها

ومغارها وسيلبلغ ملك أمتهمازوى له منها ، وكذلك كان : فامتد ملك
أمته في المشرق والمغرب ما بين أرض الهند في المشرق الى بحر طنجة
في المغرب ولم يمتد في الجنوب والشمال مثل ذلك الامتداد ، وأخبر
بالموتان الذي كان بعد فتح بيت المقدس فكان بعد ذلك الفتح طاعون
عمواس ، وأخبر بما ينال أهل بيته رضى الله تعالى عنهم من التقتيل
والتشريد وبقتل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه في « العطف »
فكان ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وأخبر عن الحسن رضى الله
تعالى عنه بأنه يصلح الله به بين فتيين فكان الصلح بسببه بين الفئة
التي معه والفئة التي مع معاوية ، وقال لسراقة أحد أصحابه : كيف
بك اذا لبست سوارى كسرى ؟ فلما أتى بهما لعمر عند فتح بلاد
فارس ألبسهما لسراقة وقال : الحمد لله الذي سلّهما كسرى وألبسهما
سراقة ، كما نقله السيوطى في « الجامع الصغير » ونقله في « جمع
الجوامع » عن البخارى في « التاريخ » والحاكم في « المستدرک »
ونقل بعضهم عن الامام أحمد في مسند حسن^(١) وصححه عن بشر
الغنى : لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش
ذلك الجيش ، وقد حقق الله تعالى فتح القسطنطينية على يد ساكن
الجنان السلطان « محمد الغازى » المشتهر بأبى الفتح ، في عام ثمانمائة
وسبع وخمسين من هجرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

(١) كذا بالاصول التي بأيدينا وهو كما ترى

وأصبحت عاصمة دار الاسلام ، ومقر خليفة سيد الانبياء العظام ،
وموئل الخاص والعام ، وما أحسن تلك الشهادة من حضرة فخر
الكائنات عليه أفضل الصلوات والتحيات في حق فاتح القسطنطينية ،
حضرة مولانا السلطان « محمد الفاتح » بل الله ثراه برضوانه ، وأسكنه
فراديس جناته ، وفي حق جيشه المؤيد المنصور ؟؟ وما أكرمها من
منحة تنشرح بها الصدور ؟ كيف : وهي من أعظم المناقب الحسان ،
لسادتنا سلاطين آل عثمان ، مع ما لهم من المفاخر التي لا تعد ، والمآثر
التي لا يحيط بها حد ، بما فتح الله تعالى على أيديهم من الممالك
العظيمة ، والاقاليم الجسيمة ، وجمعهم كلمة أهل الاسلام بعد التفرق ،
وانقسام ممالك الاسلام الى أقسام عديدة ، وحكومات متباينة كل
ذلك مع محافظتهم على الشريعة المحمدية المطهرة ، وتأيد الملة الحنيفة
النورة ، ونصرتهم مذهب أهل السنة والجماعة ، وحمايتهم الممالك
الاسلامية وتطورها ، وتعظيمهم لحلة الشريعة المحمدية من علماء الدين ،
وتعظيمهم ومودتهم لآل بيت سيد المرسلين وأشرف النبيين ،
إكراما لجدهم الأعظم ، واستمدادا لروحانيته صلى الله تعالى عليه
وسام ، وخدمتهم للحرمين المحترمين ، والمسجد الأقصى ، وتشييدهم
من الجوامع ، والمساجد ، وبيوت الأذكار ، وجيل الآثار مالا
يحصى ، وتعهدهم بالمطايا صنوف المحتاجين ، وتطبيب قلوب افراد
البيعة العثمانيين ، وبذل ثابت الهمم في تأييد هذا الدين ، وإقامة

شعائر الموحدين ، ونشر العلوم والمعارف في سائر الاقطار ، وكافة النواحي والأقطار ، الى غير ذلك من المناقب الجليلة ، والمآثر الجزيلة التي ملأت الكتب والدفاتر ، وقصرت عن احصائها الاقلام والمحابر ، فانه المسؤل : أن يؤيد شوكة مجدد مفاخرهم ، ومؤيد مآثرهم ، حضرة سلطاننا الاعظم ، وخليفة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على عمر الدهور والأزمان ، ملحوظا بعين عناية سيد الان كوان صلى الله تعالى عليه وسلم ، آمين ، آمين

وليعلم : أن هذه الاحاديث الواردة في أخباره عليه الصلاة والسلام بالأمور المستقبلية قد دون كثير منها في تأليف العلماء الأئمة الاعلام قبل أن تحدث وقائعها في الكون ، ثم بعد ذلك صارت تحدث واحدة بعد واحدة ، وتلك التأليف : معلومة مشهورة ، معلوم تاريخ جمعها وكتابتها ، هذا : حديث فزع القسطنطينية رواه الامام أحمد الذي كان قبل فتحها بمئات ، وكذلك نقله السيوطي في «جمع الجوامع» عن البخاري في «التاريخ» والحاكم في «المستدرک» ، وكل من البخاري والحاكم كان قبل فتحها بمئات ، ومماذا الله أن ينقل تلك الاخبار في كتبهم أنباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبصار شريعته وتكون غير ثابتة الرواية عندهم ، فلولا اعتمادهم روايتها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما حرروها في كتبهم باقية عن مدى الدهور وهم يعلمون وفور أعداء الدين المبين ، ومن المعلوم أن

سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : كان من العقل في أعلى الطبقات كما يشهد له بذلك أعداؤه ، وكيف يقدم عاقل ادعى منصب الرسالة من عند الله ، واتبه عليه الآلوف على الاخبار بتلك الامور المهمة : كفتح القدس ، والشام ، والقسطنطينية ، وامثالها وهو يمتقد أن ذلك لا يكون ، ويعرض نفسه للتكذيب والظعن في مستقبل الزمان ؟ معاذ الله أن يقدم عاقل على ذلك قليلاً من المتصف

ثم ليعلم بعد ذلك كله أن الاخبار بالغيب ليس في طوق البشر من رسل أو سواهم ، ومن ادعى علم الغيب من نفسه فقد قال العلماء : إنه يكفر ، وإنما الذي يحصل للبشر من ذلك إنما هو باعلام الله تعالى لهم ، وهو سبحانه : عليم بما كان وبما يكون ، فلا اشكال في ذلك ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بوقوع الاخبار المغيبات من الرسل باعلام الله تعالى لهم عليهم الصلاة والسلام

واذا أردنا أن نستوفي معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي أيده الله تعالى بها احتجنا الى كتابة مجلدات ، ولكن قد ذكرنا عنها ما يكون فيه للعقول مقتنع ، وفي الحقيقة ونفس الأمر اذا نظر العاقل اللبيب في نفس شريعته عليه السلام ، وما اشتملت عليه من الحكم والاسرار ، والمنافع الدنيوية والأخروية ، ونظر في ذاته الشريفة ، وما خصه الله تعالى به من الشرائع والاخلاق المنيقة ، مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد ربي يتيماً ، ونشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، بين قوم

أميين ما عندهم من المعارف والقنوز عين ولا أثر إلا ما فطرهم الله تعالى عليه : من الفصاحة والبلاغة ، ولم يجتمع مع أهل المعارف اجتماعاً يؤهله لاكتساب شيء مما جاء به وبلغه للخلق ، وما جاء به بمرعجاج يستغرق الاحاطة بعشره العمر المديد ، جزم ذلك العاقل اللبيب أن حاله عليه السلام ، وحال شريعته هو أمر خارق للعادة ، يحكم العقل بأنه معجزة أكرمه الله تعالى بها مؤيدة لدعواه ، ولكن هذه المعجزة لا يدركها ولا يفهمونها إلا أهل الدقة في النظر ، وأذكياء الخلق من البشر ، لأن من سوام لا يفهم إلا المعجزات المحسوسة بحاسة السمع والبصر : مثل كلام الحجر ، والشجر ، وانشقاق القمر ، والله تعالى قد أيد نبيه عليه السلام بكل النوعين من المعجزات كما يظهر مما قدمناه في بيان معجزة القرآن الشريف وسواها من المعجزات المنقولة في الحديث المنيف ، ولتذكر الآن طرفاً من بيان حال شريعته عليه الصلاة والسلام ، وحالته الشريفة العظيمة الشأن ، عسى أن ينتفع بذلك بعض أهل هذا الزمان ، فنقول : —

إذا نظر العاقل المنصف في شريعة حضرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نظر من يريد الاطلاع على الحقائق ، وأحاط بأسرارها على قدر الطاقة سالكا أوضاع الطرائق ، ظهر له ظهور الشمس في رابعة النهار : أن الشريعة المحمدية تأمر بكل خير ، وتنهى عن كل شر وضير ، هي : أنفع ما يكون للأنام ، على مدى الليالي والأيام ،

فيراها تارة من الخلق بالاعتقاد بالمقائد الصحيحة في حق الله تعالى ، بوصفه سبحانه بكل كمال يليق بشأن الألوهية ، وتنزيهه عن كل نقص تعالى عنه صفة الربوبية ، وكذلك في حق الرسل الكرام الذين جعلهم الله تعالى هداة الانام : من نحو اعتقاد عصمتهم من المعاصي ، وتنزيههم عن كل نقص يحل بمنصب الرسالة ، وتأمر بعبادات هي في الحقيقة عائدة بالنفع على العباد ، فتأمر بالطهارة ، وهي مع ما اشتملت عليه من منافع النظافة والنشاط للأبدان ، تذكّر للإنسان بالتوبة التي هي طهارة المرء من الذنوب والآثام ، وتأمر بعبادة الصلاة ، وهي من أعظم المهنذبات للنفس ، بما اشتملت عليه من الخضوع والخشوع ، والركوع والسجود : تعظيماً لله تعالى ، وفيها التوسل إليه سبحانه وتعالى والضراعة لديه ، وسؤاله الرحمة والمغفرة والاعانة والاستعاذة من العقاب ، فلذلك كانت وصلة بين العبد وربّه ، وتذكّراً له بمن هو الرقيب عليه ؟ فلو أن الإنسان استغرق في الغفلة عن مولاه ، بأنهما كه في أشغال دنياه ، لظفت نفسه ، وأنساء الشيطان ذكر خالقه ، وهوّن عليه سلوك سبيل المعاصي والشهوات ، ولسكنه بوقوفه في اليوم والليلة خمس مرات بين يدي مولاه ، مستحضراً عظّمته وجلاله يلتجئ إلى التوبة عما جناه ، وتقترعته عما من المعاصي نواه . وفي ذلك يظهر مصداق قوله تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفي اجتماعات الصلوات : من صلاة الجماعة . والجمعة . والعيدين

تسهيل سبيل التعارف والتآلف بين المسلمين ، والتعاضد على نصرة الدين ، وألفة الاطاعة لأمر المؤمنين ، وحكم كثيرة يقصر عنها قلم الكاتبين ، وتأمر بالصوم وفيه : تهذيب النفس بمنعها عن شهواتها ، وتمرين الانسان على ردع نفسه عن المعاصي والشهوات المضرة ، وتذكّر المرء بأحوال الفقراء والمساكين وما يجدونه من ألم الجوع ، ولولا الصيام لكان ربما يمر على الغنى عمره ولا يعلم ما هو ألم الجوع فلا يجد للشفقة على الفقراء في قلبه أثراً ، وتأمر بالزكاة وفيها الاحسان للفقراء والضعفاء بسد حاجاتهم ، وتهذيب نفس الغنى ، وتطهيرها عن خلق البخل المذكور ، وتأمر بعبادة الحج وهو زيارة أمكنة مخصوصة وعد الله الأمة على لسان رسوله عليه السلام بفقران الذنوب وقبول التوبة عندها ، وفي ذلك اجتماع المسلمين ألوفا مؤلفة في تلك الاماكن وذلك يدعو الى التعارف والتآلف ، وفيه تذكار ما جرى لرسول الله الكريم وعباده الصالحين في تلك البقاع المشرفة : كتذكّر ما جرى لسيدنا آدم عليه السلام ولزوجته هناك من قبول الانابة لعمولّى ، وما جرى لسيدنا ابراهيم الخليل ولولده اسماعيل عليهما السلام من الامتحان واطاعتهم للرحمن ، وتذكّر أعمال أولئك الاخيار ، وعبادتها في تلك الديار : تنبعث الانفس لتذكّر ببقية أعمالهم وعباداتهم واطاعتهم لمولاهم . وتشتاق للاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم في كل مرضى لخلقهم ، وفيه زيارة البيت المعظم الذى سماه الله تعالى بيته ،

وهو سبحانه غنى عن المسكان ، وانما ذلك منه تعالى تنزل لافكار
 البشر الذين اعتادوا على الالتجاء لبيوت ملوكهم عند ماتدهمهم المصائب
 فالحجاج يلجئون الى ذلك البيت مستجيرين من مصائب الذنوب
 وغوائل المعاصي ، طالين منه تعالى الاجارة من بلايا الآثام ، راجين
 منه الغفران كما وعدمهم على نسان سيد الاكوان ، وبذلك تطمئن
 نفوسهم بنوال المغفرة عند امثال ماأمروا به من الاعمال عند تلك
 الامكنة الطاهرة ، الى غير ذلك من الحكم والاسرار التي يضيق
 عنها هذا الكتاب المختصر : فليرجع بذلك الى كتب الشريعة الغراء
 المتكفلة بمزيد البيان ، وتأمر تلك الشريعة بكل عمل حسن وتنهى
 عن كل فعل قبيح مضر بالجسد ، أو العقل ، أو العرض ، أو المال ،
 وتأمر بالاخلاق الحمودة : كالعلم ، والصبر ، والرضا ، والرحمة والشفقة
 وتنهى عن كل خلق ذميم : كالكبر ، والحسد ، والبغضاء ، والحقد ،
 حتى انها ما تركت أمراً حسناً إلا أمرت به وحضت عليه ، ولا أمراً
 قبيحاً إلا حذرت منه ونهت عنه ، وقد جمعت لبعض المنهيات الظاهرة
 الضرر عقوبات وحدودا لاجل الزجر عنها : كمثل قتل النفس ظلماً
 الذي قبجه لا يحتاج الى بيان ، ومثل الزنا الذي يقتضى اختلاط الانساب
 وفقد التناسر ، وكشرب الخمر الذي يزيل العقل ، ويؤهل الانسان
 لارتكاب كل قبيح ، وكل ذلك ينطوى تحته حكم بديعة ، وأسرار
 رفيعة ، تعلم من الاطلاع على كتب هذه الشريعة ، وكذلك لم تدع

باباً من أبواب المعاملات والسياسات البشرية إلا وضمت له قوا.
وشرعت له أصولاً ينتظم بها أمر المعاش بين البشر ويستوفى بها كل
من القوى والضعيف حقه : فيذت أصول اليوع ، والشركات ،
والانكحة والموارث ، والمعاهدات ، وكيفية الاطاعة لولاة الأمور ،
وكل ما يقوم به صلاح الامة من كلى وجزئى يعلم ذلك من الاطلاع
على كتب الفقه أصولاً وفروعاً ، فاتيان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بهذه الشريعة التى عجز عن الاتيان بها أكبر العلماء ، وأحذق
الاذكياء ، وأكبر السياسيين الممارسين سياسة الأمم ، مع أنه عليه
الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يتفق له تعلم من
أحد البشر فى مدة حياته هو معجزة خارقة للعادة ، ودليل على أن تلك
الشريعة من عند الله تعالى ، أرسله بها سبحانه لإرشاد الخلق الى الحق
أما كونه عليه السلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب فهو أمر مشهور
متواتر بالتواتر الصحيح الذى جاءت به المثات والالوف من المدول
الثقة ، وقد صرح به فى القرآن الشريف فى عدة آيات ، والقرآن
يتلى على رؤس الاشهاد من زمنه عليه السلام الى يومنا هذا ، ولم ينكر
كونه أمياً أحد من قومه ، ولا أحد وجد بعد زمانه قال الله تعالى
فى القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه
بيمينك اذا لا رقاب الميطلون »

وأما انه عليه السلام لم يتفق له التعلم من أحد من الناس ، فلا نه

نشأ بين قومه في مكة مشهورا ، روبا بينهم ، لانه من ذوى البيوت
وأصحاب الحسب ، ومثله لا يجهل في بلده ، وقومه أميون لم يوجد بينهم
من يعرف القراءة والكتابة الا القليل ، وأما من يكون محيطا بعدة
معارف ، ومطلعا على سياسات البشر ، وقوانين الأمم بحيث يؤهله
ذلك لترتيب مثل هذه الشريعة التي جاء بها الرسول عليه السلام ، فلم
يكن موجودا بينهم لامنهم ولا من سواهم ، اذ مثل هذا لا يخفى وجوده
في بلدة مثل مكة ، وكان يغدو مشهورا بين الخاص والعام ، ولو قصد
أن يخفى نفسه لعسر عليه ذلك ، وأيضا ان تعلم الرسول عليه السلام
تلك الشريعة من مثل هذا الانسان المفروض لا يكون في مجالس أو مجالسين
بل يحتاج الى أعوام ، وأن يتردد عليه في كثير من الليالي والايام ، فليس
من الممكن عادة أن يخفى تعلمه منه على جميع أهل بلده مهما تحرى ذلك
واجتهد فيه ، وقد كان بعض المشركين تمسكوا بمثل هذه الشبهة ،
وصاروا يقولون : إن محمدا يتعلم القرآن من فلان ، وذكر وارجلا أعجبا
كان بينهم ، فافتضحو بهذه الدعوى الواضحة البطلان ، حيث نسبوا
تعليم القرآن الذي هو في أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة العربيتين
الى رجل أعجمي : ليس عنده أدنى فصاحة ، ولا أقل بلاغة توجد
في اللسان العربي ، وقد رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة في كتابه
المجيد فقال سبحانه : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان
عربي مبين »

وان قيل : ربما ان محمدا عليه السلام تعلم تلك الشريعة من أحد الناس خارج مكة في بعض البلاد الشامية التي روى انه سافر اليها قبل دعوى الرسالة مع جملة من التجار ، قلنا : ان الذي ثبت نقله وصحت روايته انه عليه السلام ماغاب عن مكة في البلاد الشامية الاعدة أيام تبغ الشهرين أو الثلاثة هي مدة الذهاب والرجوع وقضاء مصالح التجار الذين سافرو معهم ، وتلك المعارف التي ظهرت في شريعته يحتاج تعلمها الى شهور وأعوام وليال كثيرة وأيام ، ولو كان المعلم من أرفع المعلمين والمتعلم من أذكى المتعلمين : فأنى عاقل يصدق أنه عليه السلام تعلم جميع تلك المعارف في تلك الايام القلائل التي غاب فيها عن بلده - مكة ، وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وتلك المدة لا تكفي لتعلم باب واحد من أبواب تلك الشريعة ولو كان المتعلم كاتباً قارئاً ؟ على أن الرسول عليه السلام ما جاء بتلك الشريعة وأظهرها للناس دفعة واحدة من أول دعواه الرسالة بل : كان يأتي بذلك مفرقا موزعا على الاثمنة من أول دعواه الى أن تم دينه ، وانتشر بين الأمم الذين اتبعوه في مدة اثنتين وعشرين سنة : فكان يبلغ أحكام شريعته وجميع مشتملاتها للناس شيئا بعد شيء ، على حسب مقتضيات ، والمصالح ، والحوادث ، والمشاكل ، والمسؤولات ، والشبه الواردة من أخصامه : فيأتي في مقابلة كل شيء بما يطابقه وفق المرغوب ، وهذه الكيفية معلومة لنا بالضرورة ، بما نقل من سيرته ، وكيفية تمام أمره ، نقلا

صحيحاً متواتراً ، وحيث يقال : ما الذي أعلم ذلك المعلم الذي يدعى الخصم أنه علم الرسول عليه السلام بجميع الحوادث المستقبلية التي سوف تقع وتتفق له بينه وبين أخصامه أو أتباعه ؟ سواء قيل : إن ذلك المعلم من نفس مكة أو من خارجها ، فدله قبل دعواه الرسالة جميع ما يناسب الحوادث التي سوف تحدث معه في دعواه ، فعرف جواب كل سؤال سوف يرد عليه ، ودفع كل شبهة ، وحكم كل حادثه ، وحل كل مشكلة : وصار عليه السلام يورد لكل شيء ما يناسبه ، ويجب له في وقته ، مسدداً مقنناً للأفكار ، وإن أتى من تلك الحوادث ما لا يخطر في بال أحد أنه سوف يقع أو يتفق وقوعه إلى آخر الزمان : ومن يطلع على ما حدث من الحوادث في مدة دعواه الرسالة يعلم أن إحاطة أحد بجميع ما سوف يحدث في تلك المدة واستحضار ما يلزم له هو من المحال عادة ولا يقول به إلا مكابر ، وقد كان عليه السلام في أكثر أحواله يرد عليه السؤال أو الشبهة ويجب عن ذلك في مجلسه في الملأ العام بين جماهير أصحابه ، وأعدائه المشركين ، ولم يشاهد أحد حيث أنه يلتفت إلى واحد من الحاضرين ويسأله متعلماً منه ما يلزم له من الجواب ، أو يضطر إليه من الخطاب بل : هو المجيب ، والمدافع ، والمفيد ، والمعلم ، وكل من لديه تلامذة متعلمون ، فأين هذا المعلم للرسول الذي يزعمه الخصم ؟ ما هذا الزعم إلا افتراء بارد : فقد ظهر الحق لذوى الانصاف ، وتبين أن اتیان سيدنا محمد الأئمة بهذه

الشریعة الغراء معجزة من معجزاته ، وأن دعوى تعلمه من أحد من البشر هي دعوى باطلة لا يقول بها الا كل جاهل بأحوال سيرته ، وتاريخ حياته ، أو معاند مكابر للحق : هداانا الله تعالى الى ما فيه النجاة ، آمین

وأما حاله عليه الصلاة والسلام في ذاته الشريفة ، وأخلاقه ، وشمائله المنيفة ، فقد نقل لنا العدول وصح لنا الاخبار البالغة بكثرتها درجة الثواتر : أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهبه الله تعالى المحاسن خلقا وخلقاً ، وجمع الله تعالى فيه الفضائل الدينية والدنيوية : أما حسن صورته وخلقه فقد ثبت النقل الصحيح أنه عليه السلام : كان أحسن الناس صورة ، وأجلهم خلقاً ، فكان على ما يرام من المحاسن والجمال الباهر ، كما قال فيه بعض واصفيه :
وأحسن منك لم تر قط عيني وأجل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقد أفردت محاسن ذاته الشريفة بالتأليف. فليتشرف بالاطلاع عليها من أراد ، وأجمع ما وصفه به الواصفون قول بعض من شاهده عليه السلام : هو أجل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب يتلألاً وجهه ثلاثو القمر ليلة البدر ، من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، وتخصيص الله تعالى له بحسن الصورة هو من جملة الحكم الإلهية ، فإن الله تعالى

به دأيا للخلق وحسن الصورة مما تألفه الانفس ، وتلذ به الأعين ،
فتقبل عليه كما أن قبح الصورة متفر مشرد

وأما وقور عقله عليه السلام وذكاء لبه . فقد صحت الأخبار ،
وتواردت النقول . أنه كان عليه السلام أعقل الناس وأذكاهم ، ومن
نظر الى تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة الخاصة
والعامة ، وتأليفه أجلاف البوادي ، وأخشان الجبال ، وتهذيبه لهم
حتى أصبحوا من أكمل الناس أدبا ، ومعرفة ، وسيرة ، فضلا عما
أفاضه من العلم ، وقرره من الشرع ، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة
تقدمت ، لم يشك في رجحان عقله ، وثقوب فهمه عليه السلام لأول
بديهة . وهذا لا يحتاج الى تقرير الدليل ؛ لتحققه بالمشاهدة في عصره ،
وتواتره بعد ذلك بين طوائف العالم ، وقد أعطى عليه السلام جوامع
الكلم ، وخصص ببدائع الحكم ، وأفرد الناس جوامع كلمه ، وبدائع
حكمه بالتأليف : فمن ذلك قوله عليه السلام : « المسلمون تتكافأ
دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وقوله :
« لا خير في صحبة من لا يرى لك ماترى له » وقوله : « ما هلك امرؤ
عرف نفسه » وقوله : « المستشار مؤتمن وهو بالخيار حتى يتكلم » وقوله :
« رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » وقوله : « ان أحبكم
الى ، وأقربكم منى مجالس يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤون
أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند

الله وجيها » وقوله : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ،
وخالق الناس بخلق حسن » وقوله : « خير الامور اوساطها » وقوله :
« احب حبيك هونا ما ، عسى ان يكون بغيضك يوما ما » وقوله :
« السعيد من وعظ بغيره » الى غير ذلك من جواهر الكلام وجوامعها ،
وبديع الحكم التي يقصر عن استيفائها القلم

وأما حلمه عليه السلام وعفوه وصبره فقد كان في الدرجة
العليان من هذه الاخلاق ، فقد صبح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما انتقم
لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها ، ولما آذاه المشركون
أشد الاذى قيل له : لودعوت عليهم ، فقال : إني لم أبعث لعانا ، ولكني
بعثت داعيا ورحمة : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون : نعم أخذ يدعو
على القبائل التي غدرت بجملة من قراء الصحابة وقتلهم ظلما ، غيرة
منه عليه السلام على حرمة الله التي انتهكت في قتل أولئك المؤمنين
المظلومين ، ولما أنزل الله تعالى عليه « ليس لك من الامر شيء »
كف عن الدعاء عليهم ، وفوض الامر اليه تعالى ، وكم هم أناس بقتله
غذرا وقبض عليهم فمفا عنهم ؟ وكم جافاه أجلاف العرب فلاطفهم ،
فهو كما نقل وصفه في الكتب القديمة : انه لا يزيد شدة الجهل عليه
الا حلما ، وكم صبر على مقاساة قريش وصابر الشدائد الصعبة معهم
إلى أن أظفروه الله تعالى عليهم ، وحكمه فيهم وهم لا يشكون في إهلاكه
لهم عن آخرهم ، فآزاد على أن عفا وصفح عنهم ، وقال « أقول كما قال
أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء »

والآثار في ذلك كثيرة وكلها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان
أبعد الناس غضبا ، وأسرعهم رضا

وأما جوده وسخاؤه وسماحته عليه السلام فقد كان بحراً ذاخراً
في هذه الاخلاق الكريمة فما روى أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين
جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى
فاقة ، وأعطى غير واحد مائة من الابل ، ورد على هوازن سبائهم
وكانوا ستة آلاف ، وقوم ما وهبه لهوازن فكان خمسمائة ألف ألف ،
والروايات في ذلك أكثر من أن تحصى

وأما شجاعته ونجدته عليه الصلاة والسلام فقد كان منهما بالمسكان
الذى لا يجهل : قد حضر المواقف الصعبة وفر السكاة والابطال عنه
غير مرة وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزعزع ، قال على
رضي الله تعالى عنه : كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الخدق : اتقينا
برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى
العدو منه

وأما حياؤه واغضاؤه فقد كان عليه الصلاة والسلام : أشد الناس
حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء ، فكان لا يشافه أحداً بما يكره
حياه وكرم نفس ، حتى كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال
فلان يقول كذا ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا :
ينهى عنه ولا يسمى فاعله ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً ،
ولا متفحشاً ، ولا صخباً في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة

وأما حسن عشرته وآدابه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فهو أمر مشهور : فورد أنه كان أوسع الناس صدرا ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، وكان يؤلف المسلمين ولا ينفهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلس نصيبه ، ولا يحسب جلسه أن أحدا أكرم عليه منه : من جالسه أو قاربه صبر على سؤاله ، وذكر حوائجه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يردده إلا بها أو ييسر من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقته ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا عياب ، ولا فحاش ، ولا مداح : وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية - ولو كانت كراعا ويكافى عليها ، قال أنس رضى الله تعالى عنه : « خدمت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين فما قال أف قط ، وما قال لشيء صنعت لم صنعت ، ولا لشيء تركته لم تركته » ، ولا دعاه أحد من أصحابه أو من أهل بيته إلا قال : ليك ، وكان يمازح أصحابه ولا يقول في مزاحه إلا حقا ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمساكين في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر : وما أخذ أحد بيده فيرسله بيده حتى يرسلها إلا أخذ ، ولم ير مقدما ركبته بين يدي جلس له ،

ويبتدى " من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة ، ويمزم عليه بالجلوس عليها ان أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم اليهم ، وكان لا يجلس اليه أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته واذا فرغ عاد الى صلاته ، وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال « كان خدمة المدينة يأتون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الغداة » أى الصبح ، فما يؤتى بأنيبة إلا غمس يده فيها ، وربما كان ذلك فى الغداة الباردة يريدون التبرك به ،

وأما شفقتة ورحمته على أمته فذلك أمر مشهور ، وشواهدة لا تحصى : وقد كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز فى صلاته رحمة بأمه ، ويكفى بالدلالة على ذلك أنه : ما خير بين أمرين الا اختار أيسرها ، فجاءه الله تعالى عنا كل خير

وأما خلقه بالوفاء ، وحسن العهد ، وصلة الرحم ، فهو شهير موفور ، وقد روى أنه وفد عليه وفد النجاشى ملك الحبشة الذى كان قد هاجر الى بلاده جملة من الصحابة فأكرم مشواهم : فقام صلى الله تعالى عليه وسلم يخدم أولئك الوفد بنفسه فقال أصحابه : تكفيك فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم ، وأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقمعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبته فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من

الرضا فقام فأجلسه بين يديه ، وقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم أنه : يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام مع علو منصبه ورفعة رتبته فكان أعظم الناس تواضعا ، وأعدهم كبرا ، كان يقول : « إنما أنا عبد آكل كفايا كل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ، وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس مع أصحابه مختاطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، وكان يدعى إلى خبز الشعير فيجيب ، ويأكل مع الخادم ، وحج على رجل رث عليه كساء من صوف لا يساوي أربعة دراهم ، وقد أهدي في ذلك الحج مائة بدنة ، وكان في بيته في مهنة أهله : يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويكنس البيت ، ويعلف البعير ، ويخدم نفسه ، ويحمل ما يشتري من السوق مع كثرة عيده وخدمه وتشوق الناس لخدمته ، لكنه يحب فعل ذلك تواضعا وأشرى ما

وأما عدله وعفته وصدق لهجته صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة منذ كان : اعترف له بذلك أعداؤه ، وكان يتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، وورد أنه : ما لم يست يده يد امرأة قط لا يملك رقها ، وما خير في أمرين لا يختار أبسرهما . ألم يكن إنما ، فإن كان إنما كان أبعد الناس ، وقد جزء نهاره ثلاثة أجزاء .

جزءاً لعيادة ربه ، وجزءاً لمصالح أهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزء جزءه
بينه وبين الناس ، وكان يقول : أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغه ؛
فانه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمه الله يوم الفرع الأكبر ، وقد
كان معروفاً بالصدق بين قومه من أول نشأته حتى دعوه بمحمد
الأمين ، وقال بعض المشركين بمعد بعثته : إذا لانكذبك ولكن
نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى في القرآن المجيد قوله تعالى : « فانهم
لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

وأما وقاره وصمته وحسن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم : فقد
كان أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شئ من أطرافه ، وكان
كثير السكوت لا يتكلم من غير حاجة ، وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه
فصيلاً : لا فضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توفيراً له
واقتراده به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، اذا تكلم أطرق
جلساؤه كأن على رؤسهم الطير ، وكان أحسن الهدى هديه ، وكان
سكوته على أربع ، على الحلم والحذر والتقدير والتفكير

وأما زهده في الدنيا فحسبنا منه تغلله منها ، واعراضه عن
زهرتها وقد سيقته اليه بجمالها ، وترادفت عليه فتوحاتها بما يسر الله
له : من الغنائم ، والأموال ، والأرزاق الواسعة الطيبة بحيث لو أراد
لتوسع فيها واقتطف زهرتها فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها
وحسبنا ما ورد أنه : ما شبع من خبز شعير يومين متواليين ، وما

ترك ديناراً ولا شاة ولا بعيراً، ولم يترك إلا صلاحه وبغته وأرضاً
جعلها صدقة؟ وقد كان فراشه جلداً مذبوغاً وحشوه ليف، وكان
ينام أحياناً على سرير من خوص النخل حتى يؤثر بحنبه الشريف عليه
الصلاة والسلام، وكان ينام جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع
فلا يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء لجمع كنوز الأرض ونمازها
ورغد عيشها، قالت إحدى نساؤه: كنت أبكي رحمة له مما أراه،
وأمسح يدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء،
لو تبلغ من الدنيا ما يقوتك، فيقول: مالي وللدنيا إخواني: من أولى
الغرم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم
فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم، وأجزل ثوابهم فاستحي من
الله أن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غذا دونهم، ومامن شيء هو أحب إلي
من الحقوق بإخواني وأخلائي، وإذا أردنا استيفاء جميع أخلاقه الحميدة،
وعموم صفاته الحميدة احتجنا إلى تطويل لا يحتمله هذا الكتاب المراعى فيه
الاختصار وبما ذكرناه يظهر للعاقل المنصف المتدبر أن اختصاصه عليه
السلام بتلك المحاسن وتحليته بهذه المكارم مع أنه تربى يتيماً بين أمة جاهلية
تغلب عليهم القسوة والجور، وخشونة الطباع، وعدم التهذيب،
ما كان ذلك إلا بحضرة عناية من الله تعالى به، وإقامته بمنصب رفيع،
ومقام جليل، ومن تكون فيه تلك الصفات الكاملة، والأخلاق
الفاضلة، والعقل الناقب، والرأي الصائب، ما كان ليتلبس بصفة

الكذب والاحتيال ، ويخدع الناس بزخارف المحال ، ويدعى افتراء على الله تعالى أنه رسوله قد اختاره واصطفاه على من سواه ، إنا نرى العاقل منا يمنع عقله ، ويأبى عليه ضميره ، أن يكذب كذبة واحدة على رجل مثله أو دونه وتأنف نفسه الشريفة أن يقدم على ذلك ولو اضطره المحال : فكيف أن من كان عقله في أعلى درجات السكال ، وهو متصف بأشرف الخصال ، يقدم بالكذب على الإله الكبير المتعال ، ويمارس ذلك على ممر الأيام والليالي ؟ معاذ الله أن يقدم على ذلك من له أدنى عقل وأقل كمال

ثم الغريب من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكل أحواله غريبة — وهو دليل على صدقه ، وأعانة الله تعالى له : أنه قلب حال الأمة التي قام بينها وهي أمة جاهلية ، مغموسة في بحار الجهالات والضلالات ، في العبادات والمعادات : فرفمها من حضيض الرذائل إلى أوج الفضائل ، فبدل جورها بالانصاف ، وخشونتها باللين ، وجهلها بالعلم والمعرفة ، وعداوتها بالحب والالفة ، ومحاربتها بالجورية بالسلام والأمان ، وشقاءها بالنعيم ، وضلالها بالهدى إلى الصراط المستقيم ، وعصيانها بالطاعة ، وقرقتها بالجاعة ، وضعفها بالقوة ، وخيانتها بالإعانة ، وفحشها بالعفة والصيانة ، وقد كان عندها من حميد الشرائع الكريمة ولكنه مشوب بالنذير والاسراف ، والشجاعة ولكنها مملولة بالجور والاعتساف ، فعدل عليه الصلاة والسلام خصالها

وهذب اخلاقها حتى أصبحت خير الأمم ، وأكرم العالم ، وسرى ذلك الى الأمم الأخرى التي اعتنقت دينه المبين ، فأصبحوا من خيار الصالحين ، وكل ذلك جرى على يديه عليه الصلاة والسلام بواسطة شريعته التي هي منهج السعادة ، وبحسن سيرته وصفاته أخلاقه وكال سياسته ، ولا شك أن ذلك منه كان أمرا خارقا للعادة يعد من أعظم المعجزات عند ذوى الانصاف ، وقد اشتبه على بعض الأجانب عن الدين المحمدي لما رأوا أن الجهاد مشروع فيه فظنوا أن هذا الدين ماتم أمره الا بالسيف والارهاب ، وهي شبهة باطلة علفت في فكر من لم يطلع على سيرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأول نشأته ، وقيام دينه المبين ، وأما من عرف ذلك فلا يجد لهذه الشبهة عينا ولا أثرا ، وبيان ذلك أن الذي ثبت نقله نقلا صحيحا في سيرته عليه السلام وبده أمره أنه لما قام في دعوى الرسالة في مكة المكرمة كان وحيدا فريدا ، ليس صاحب سلطان ، ولا مقمدا على عصبة عشيرة ، بل انه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم : كان أول مكذب له عشيرته وعادوه أشد المعاداة ، وسلطوا عليه أشرارهم بالأذى والاضرار ، وهو التزم طريق الهداية والارشاد : فصاريقيم البراهين على صدق دعواه ، ويورد المواظ ، ويؤلف انقلوب بكل ممكن ، ويأمر بأوامر شريعته المورثة الخير ، وينهى بتواهيها عن كل إيورث الضير . ومضى له على ذلك مدة تبلغ عشر سنوات وهو

مقيم في مكة ولم يأمر بآراقة قطرة دم لأعدائه ، بل يتلو قرآنه المشتغل
على قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وقوله
في خطاب من تبعه : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من
ضل إذا هتديتم » وقوله : « ومن كفر فمليه كفره » إلى غير ذلك من
الآيات ، وهاجر من مكة إلى المدينة وهو ملتزم بهذه الطريقة مدة
من إقامته في المدينة ، وقد اتبعه مع تلك الحال والطريقة الجمل الغفير
من أهل مكة وأهل المدينة ، وطوائف العرب ، كما يعلم من مراجعة
سيرته : وقيل شرعه العقول السليمة ، واستحسنه الطباع الصحيحة
ولا خوف هناك ولا تهيب ، لكن لما ظهر للعقول السليمة ،
والانظار القويمة ، أن المخالفون الذين لم يتبعوه عليه السلام لا يعمل
معهم البرهان ، ولا تنفع فيهم الموعظة ، ولا يثمر لديهم الإرشاد ،
بل هم فضلا عن ضلالتهم وغشهم لأنفسهم ، بعدم قبول الدين الحق
وسلوك سبيل الاستقامة لا يفكرون عن أذاه عليه السلام وأذى اتباعه
كما سنحت لهم الفرصة ، ينصبون لهم المكائد ويقيمون في سبيل
دينهم المعثر ، ويخترعون لهم بدائع الأضرار ، ويعاملونهم معاملة
الأشرار ، ووجد أن دوام المعاملة بالرفق لا يؤثك المخالفين يزيد
طغيانهم ، ويشوش أمر الدين على اتباعه أذن الله تعالى له عند ذاك
بجهاد الأعداء ، والأخصام الألداء ، والأغرار البليداء ، مستبدا لا لترغيب
مع هؤلاء الأشرار بالتهيب ، وإنما بالأذى والقمع ، وقطعا

لجريمة العناد، اذ قد يسمح بالاثرار لسلامة الاختيار ، ويقطع
المعضو المريض لوقاية صاحبه من البوار ، ولكن شرع الله ذلك الجهاد
في شريعة سيدنا محمد عليه السلام على حدود تبقى للرفق مجالا، وللشفقة
والعدل منالا ، حتى لو قوبل جهاده مع الجهاد المشروع في الشرائع
المتقدمة كشرعية سيدنا موسى عليه السلام لوجد أن في جهاد شريعة
سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تخفيفات لم توجد في سواه ، يعلم
ذلك من الاطلاع على شؤون الشريعتين ، وفيما قررناه ظهر أن تلك
الشبهة التي يزعم صاحبها أن الدين المهدى قام بالسيف هي شبهة
ظاهرة البطلان ، مهدومة الأركان ، والحق الحقيق بالقبول أنه
ما كان أساس المهدى والسعادة لنا ولاسلافنا إلا بنور شريعة
سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبهديه وارشاده ، فجزاه الله تعالى
عنا خير الجزاء ، ورفع درجته في أعلى عليين ، فطينا معشر المسلمين
مداومة محبته وتعظيم جنابه الشريف وفداؤه بالأرواح ، ومن محبته
عليه السلام تعظيم شرعه واطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه كما قيل :

* ان المحب لمن يحب مطيع *

وأما الشخص الذي يدعى محبته وهو مخالف لشرعه فخاله يكون
مكذبا لدعواه ، وشاهدا عليه بنجث الطوية ، ومن محبته عليه الصلاة
والسلام محبة أهل بيته وعترته ، وتعظيم حملة شريعته واكرامهم
والاحسان اليهم ، ومن كمال محبته عليه الصلاة والسلام معرفة نسبه

الشریف من جهة أبيه ومن جهة أمه ، حتى قال بعض العلماء
بوجوب ذلك : فأما نسبه من جهة أبيه فهو : سيدنا محمد ، بن
عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، بن
حكيم ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن
مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمه ، بن مدركة ، بن الياس ، بن
مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ، وليس فيما بعده الى آدم عليه
الصلاة والسلام نقل صحيح : وأما نسبه صلى الله عليه وسلم من جهة
أمه ، فهو : سيدنا محمد بن آمنة ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ،
ابن حكيم ، فتجتمع معه عليه السلام في جده حكيم

ومن كمال محبته عليه السلام معرفة أسماء أولاده رضى الله تعالى عنهم
وهم سبعة على الصحيح : سيدنا القاسم ، وسيدتنا زينب ، وسيدتنا رقية ،
وسيدتنا فاطمة ، وسيدتنا أم كلثوم ، وسيدنا عبد الله ، وهو الملقب
بالطيب والطاهر ، وسيدنا إبراهيم ، وكلهم من سيدتنا خديجة الكبرى
رضي الله تعالى عنها إلا سيدنا إبراهيم فمن مارية القبطية

ومن حسن الأدب مع حضرته عليه الصلاة والسلام اعتقاد
نجاة أبويه ، إما بالاعتماد على قول من يقول : بنجاة أهل الفترة الذين
كانوا قبل بعثة الرسول عليه السلام وهما من جملتهم ، وإما بالاعتماد
على ماورد في بعض الآثار أن الله تعالى أحياهما له حتى آمنا به وذلك
جائز داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى

واعلم أنه قد دلت النصوص الشرعية ، وانعقد اجماع الامة
المحمدية ، على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله
تعالى الى الناس كافة بل الى الثقلين الانس والجن لا الى العرب خاصة
كما زعمه بعض الكفار ، وانعقد اجماع الامة أيضا على أنه خاتم الانبياء
والمرسلين : لا نبي بعده ، فشرعه عليه السلام لا ينسخ الى آخر
الزمان ، أى لا يرفع بشرع سواه ، وسيدنا عيسى عليه السلام عند
نزوله الى الأرض فى آخر الزمان إنما يحكم بشرع نبينا عليه السلام
لا بشرع جديد ، وعدم قبول سيدنا عيسى عليه السلام للجزية هو
من جملة شرع نبينا عليه السلام لأن قبول الجزية فى الشرع المحمدي
غايته الى نزول عيسى عليه السلام ، وقد انعقد اجماع ايضا على أن شرع
نبينا ناسخ لسائر الشرائع المتقدمة ، أى ناسخ أكثر أحكامها غير العقائد
منها ، وأما العقائد : كالإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ورسوله ،
واليوم الآخر ، فهي ثابتة فى سائر الشرائع ، وحكمة نسخ شريعة
هى اختلاف المصالح بحسب الازمنة ، مثلا المصلحة فى زمن الامم السابقة
اقتضت تكليفهم بشرائعهم ، والمصلحة فى زماننا الى آخر الدهر اقتضت
تكليفنا بشريعة نبينا ، وبهذا ظهر سقوط شبهة من يقول من الكفار
أنه يلزم على القول بالنسخ ظهور مصاحبة كانت خفية على الله تعالى ،
اذ يقال له : ان الله تعالى من الازل عالم بمصلحة كل أمة وزمنها ، فرتب
قديم لكل أمة شريعة ؛ ورسلا رسولا لكل منها ، وجعل التأخرة

نسخة المتقدمة فآين الحناء على الله تعالى؟ وانعقد الاجماع ايضا على ان نبينا عليه الصلاة والسلام افضل الخلق اجمعين لا يفضلُه أحد من مخلوقات الله تعالى ، ثم الراجح عند العلماء أن الافضل بعد نبينا سيدنا ابراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، وهؤلاء الأربعة مع نبينا هم أولو العزم من الرسل ، ثم بقية الرسل ، ثم الانبياء غير الرسل ، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى ، ثم سيدنا جبريل ، ثم سيدنا ميكائيل من الملائكة ، ثم بقية رؤساء الملائكة ، ثم عوام البشر ، والمقصود منهم أولياؤهم غير الانبياء : كآبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، ثم عوام الملائكة ، وقد ثبت في الأحاديث النبوية أن قرنه عليه الصلاة والسلام أى أصحابه هم خير القرون المتقدمة والمتأخرة ماعدا الانبياء والرسل ، والصحابي هو من اجتمع بالرسول عليه الصلاة والسلام مؤمنا به ومات على ذلك ، وأفضل أصحابه عليه الصلاة والسلام خلفاؤه الأربعة على ترتيب خلافتهم : فأولهم في الفضل أبوبكر الصديق ، ثم سيدنا عمر بن الخطاب ، ثم سيدنا عثمان بن عفان ، ثم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وأفضل القرون بعد قرنه عليه الصلاة والسلام قرن التابعين وهم الذين اجتمعوا بالصحابة اجتماعا متعارفا ، ثم قرن أتباع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، ومما انعقد عليه اجماع الامة أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا تكون مكتسبة للعبد ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى.

تكاليف سواء أمر بتبليغه أم لا ، وكذلك الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، وأما الولاية فالأظهر عند العلماء فيها التفصيل ، فمنها ما هو مكتسب ، وهو أمثال الأمور واجتناب المنهيات ، وتسمى الولاية العامة ، ومنها ما هو غير مكتسب وهو العطايا الربانية : كالعلم اللدني ، ورؤية اللوح المحفوظ ، وغير ذلك

ولنختم مبحث المعجزات ببيان بقية خوارق العادات ، فنقول : قد علمت أن الأمر الخارق للعادة إذا ظهر على يد مدعى الرسالة من عند الله تعالى أو النبوة يسمى معجزة ، فإما إذا ظهر للرسول قبل دعواه النبوة أو الرسالة — كما ورد أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تظلمه الغمامة قبل إرسال الله تعالى له وادعائه الرسالة فيسمى هذا أرهاضا ، أي تأسيسا للرسالة

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد ظاهر الصلاح والعدالة وليس عنده دعوى النبوة والرسالة فيسمى كرامة ، ونحن مدعو المسلمين من أهل السنة والجماعة نوّمن بكرامات الأولياء ؛ لورود النصوص الشرعية بذلك ، ونقل الأخبار الكثيرة بوقوع خوارق العادات للكثير من الصالحين أكرمهم الله تعالى بها لأجل أن يحترموا بين الناس ، أو ليقبل ارشادهم وموعظتهم إذا أقامهم الله تعالى في مقام الارشاد ، أو لتفريج كربهم وقضاء مصالحهم إذا احتاجوا الى ذلك ، وكل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى عليهم ، ولا يجب عليه تعالى

شيء من ذلك ، والأولياء جمع ولي ، وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الامكان ، المواظب على الطاعة ، المجتنب للمعاصي ، بمعنى أنه إذا ارتكب معصية بادر الى التوبة ، وليس المراد أنه لا تقع منه معصية إذ ليس هو معصوما ، المعرض عن الإهمالك في اللذات والشهوات المباحة ، وأما أصل التناول للذات المباحة فلا مانع منه لاسيما إذا كان بقصد التقوى على طاعة الله تعالى

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد مستور الحال ، لا ظاهر الصلاح ، ولا ظاهر الفسق فيسمى معونة ، أي اعانة من جانب الله تعالى : وأما إذا ظهر على يد ظاهر الفسق فيسمى استدراجا ، بمعنى أن الله استدرجه باظهار ذلك على يده فيتمادى بنفسه ثم إذا أخذه الله تعالى لم يفله — والعياذ بالله تعالى

وهذه الأقسام من خوارق العادة تكون على وفق مقصد من تظهر على يديه ، وبقي قسم آخر : وهو أن يقع الأمر الخارق للمادة للمرء على خلاف ما يطلبه ، كما روى أن مسيلمة الكذاب الذي ادعى الرسالة في زمن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بصق في عين رجل لتشفى فعميت الأخرى ، ويسمى هذا القسم من خوارق العادة خذلانا ، أي تكذيبا وخزيا من الله تعالى لذلك الكاذب

ولا اشتباه بين هذه الأقسام وبين المعجزة ، لأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة ، أو النبوة — كما تقدم — موافقة لمقصد من

تظهر على يديه ، وغيرها ليس كذلك ، كما أنه لا اشتباه بين الكرامة التي تظهر على يد ظاهر الصلاح غير مدعى الرسالة أو النبوة موافقة لمطلبه وبين بقية الأقسام ، والله تعالى أعلم

الفصل الرابع

في بيان الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، والايمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله ، والقضاء والقدر

اعلم أنه يجب على كل مكلف شرعا الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وهو أن يعتقد اعتقادا جازما بوجودهم ، وأنهم عباد الله المؤمنون به المكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرن ، وقد وردت النصوص الشرعية بجميع ذلك ، وحقيقتهم عند أكثر المسلمين أنهم أجسام لطيفة ، أعطاهم الله تعالى القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مسكنهم السموات

وقد وردت النصوص الشرعية بما يفيد أنهم أقسام ، فمنهم حملة العرش ، ومنهم الحاقون حول العرش ، ومنهم أكابر الملائكة : كجبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، ومنهم ملائكة الجنة ، ومنهم ملائكة النار ، ومنهم الموكلون ببني آدم ، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الموكلون بحمل هذا العالم بالتدبير ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه بالوحي ،

ودلت النصوص أيضا على أنهم قادرون على الأعمال الشاقة العظيمة التي يعجز عنها ألوف البشر بل جميع البشر ، إلى غير ذلك مما ورد في حقهم في القرآن والاحاديث

وقد اتفق أئمة المسلمين كما يؤخذ من الشفاء الشريف على عصمة المرسلين منهم بالوحي إلى أنبياء البشر كما عصم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولكن : اختلف العلماء في عصمة غير المرسلين من الملائكة ، وقال الفخر الرازي ، والجمهور الأعظم من علماء الدين على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، وقد تمسك المخالفون في عصمتهم بأمور ، منها أن إبليس كان من الملائكة فعصى الله تعالى وكفر ، ونحن نقول : إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة كما حقه الإمام الرازي وغيره من العلماء ، ومنها قصة هاروت وماروت ، ونحن نقول : أما الآية التي وردت فيها وهي قوله تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملائكة بيابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » فالذي تلخص من كلام الإمام الرازي في تفسيره أن السحرة كثرت في ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدهون النبوة ، ويعملون تلك الأعمال السحرية معجزاتهم فبمث الله تعالى هذين الملائكة لئلا يعلم الناس أبواب السحر

حتى يتمكنوا من معارضة أدلثك السحرة الذين يدعون النبوة كذبا ولا شك أن هذا من أحسن المقاصد ، فهذا المسكان كانا لا يعلمان احدا السحر حتى يبذلا النصيحة فيقولان له انما نحن فتنة ، أى محنة يتميز بها المطيع من المعاصي ، فهذا الذى نصفه لك من السحر وإن كان المقصد منه أن يظهر به الفرق بين السحر وبين المعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفسد والمعاصي : فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة ، ثم إن القوم تعلموا منهما السحر واستعملوه في الشر ، وإيقاع الفارقة بين المرء وزوجه ، ثم قال الرازى : واتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، يعنى وانما المحظور العمل به ، وتقدير الآية بهذا الوجه لا اشكال فيه ، ولا يدل على معصية الملوك المذكورين كما هو ظاهر ، بل يكونان قد امتثلا أمر الله تعالى في التعليم ، كما لا اشكال في أنه كيف ينزل الله تعالى عليهم السحر المنهى عنه ، لأن المحرم هو العمل به لا تعلمه لأجل مقصد حسن ، وأما ما روى من أن هذين الملوك قد مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتمرضا لامرأة يقال لها الزهرة ، فحماتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء ، بما تعلمت منهما فنقول : ان هذه القصة قد اختلف العلماء في صحة نقلها ، فقال الامام غفر الدين الرازى في تفسيره

أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ، لأنه ليس في كتاب الله تعالى ما يدل على ذلك بل فيها ما يبطلها من وجوه ، ثم بين تلك الوجوه ، وقال الامام البيضاوى عن هذه الرواية : انها محكية عن اليهود ، وقال أبو السعود في تفسيره : انها بما لا يعول عليه ، لأن مداره رواية اليهود مع ما فيه من الخفاقة لأدلة العقل والنقل ، وقال القاضى عياض فى الشفاء الشريف : ان هذه الأخبار ، يعنى المذكورة فى قصة هاروت وماروت لم يرو منها شيء ، لاسقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليس هو شيء يؤخذ بقياس وإذا علمت ذلك فنحن يسوغ لنا الأخذ بقول هؤلاء ، الأئمة الاعلام ، والاعتماد على ما رجحوه فى عدم صحة هذه الرواية ، ولا يجب علينا اعتقاد هذه القصة فى هذين المسكين ، وعلى فرض صحة روايتها كما قال به بعضهم فنقول : لعلها من باب ضرب الأمثال والرموز كما ذكر احتمال ذلك البيضاوى ، وأبو السعود ، وبين شيخى زاده والسليكو تى فى حاشيتهما على البيضاوى كيفية ذلك التمثيل ، أولل الرواية فى هذه القصة هى حكاية لما قاله اليهود وزعموه من جملة أقاصيصهم ، فبطلانه فى نفسه لا يتافى صحة الرواية التى حكته لنا عنهم ، وعلى هذا حمل السليكو تى قول البيضاوى : محكية عن اليهود ، وهى كل فلا تعارض هذه القصة عصمة جميع الملائكة ، والله تعالى أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية ، ويجب الايمان به أن على كل عبد حفظه من الملائكة ، وكاتبين يكتبون أعمال العبد : من حسنات وسيئات ، وهذه الكتابة يكفر منكرها لتكذيبه القرآن قال تعالى : « كراما كاتبين يعلمون ما تقلون » لكنها ليست لحاجة دعت إليها ، لاحاطة علم الله تعالى بكل شيء ، وانما فائدتها أن العبد اذا علم بها استمعى وترك المعاصي ، والكتب حقيقى : بآلة ، وقرطاس ، ومداد ، يعلمها الله تعالى ، حملا للنصوص على ظواهرها ، مع عدم الاستحالة فى ذلك ، والله أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية أيضا وجود ملك يقبض الارواح ، أى يخرجها من مقرها : فيجب الايمان بذلك ، وورد أن اسمه « عزرائيل » وأن له أعوانا يسدد من يموت : يترفق بالمؤمن ويأتيه بصورة حسنة ، بخلاف غيره ، وسند كرفى الباب الثالث ان شاء الله تعالى الشبه الواردة فى شأن الملائكة فانظرها هناك ويجب على كل مكلف شرعا الايمان بالكتب المنزلة من الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فتؤمن بأن الله تعالى كتبها أنزلها على رسله ، وبين فيها أمره ونهيه ، ووعدته ووعدته ، وأفضل الكتب المنزلة القرآن ، ثم التوراة ، ثم الانجيل ، ثم الزبور ، وكلها كلام الله تعالى

واعلم أن كلام الله يطلق على معنيين ، المعنى الأول هو الصفة

القديمة القائمة بذاته تعالى التي ليست بحرف ولا صوت ، كما قدمناه في بحث صفاته تعالى ، والمعنى الثاني هو الكلام المنقضى المنزل على الرسل ، ومعنى أنه كلام الله تعالى أنه بمجرد الوحي وليس لأحد في أصل تركيبه كسب ، وهو يدل على بعض ما تدل عليه صفة الكلام القديمة ، لأنها تدل على جميع الواجبات ، والجائزات ، والمستحبات ، كما مر في بحث الصفات ، وهذه الألفاظ المنزلة على الرسل تدل على بعض ما تدل عليه تلك الصفة القديمة فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الصفة القديمة طلب إقامة الصلاة مثلاً لفهم ذلك من قوله تعالى في القرآن : « أقيموا الصلاة » وعلى المعنى الثاني يحمل قول السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : « ما بين دفتي المصحف كلام الله » ومن أنكر أن ما بين دفتي المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا أن يريد أنه ليس الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ، ومع كون اللفظ الذي نقرأه حادثاً ومخلوقاً : لا يجوز أن يقال كلام الله أو القرآن حادث أو مخلوق إلا في مقام التعليم ، لأنه لا إطلاقه بالمعنى الأول على الصفة القديمة ربما يتوهم أن هذه الصفة حادثه أو مخلوقة ، ولذلك خرب الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله تعالى عنه وحبس على أن يقول بخلق القرآن فلم يقل ، ثم اعلم أن جميع الكتب المنزلة قد نسخت بالقرآن تلاوتها وبعض أحكامها ، والله تعالى أعلم

ومما يجب شرعاً على كل مكلف الإيمان بالقضاء والقدر ، كما وردت

النصوص الشرعية بهما ، وكما أمرنا بالإيمان بهما فقد نهينا عن الخوض في مباحثهما ، ولكن لما كان الإيمان بهما لا بد فيه من تفسير معتاهما نقول : إن المنقول من المتريدية في تفسيرهما : أن القدر هو تحديد الله تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذي يوجد عليه : من حسن وقبح ، ونفع وضر ، إلى غير ذلك ، أي علمه تعالى أزلا صفات المخلوقات فيرجع إلى صفة العلم ، وأن القضاء إيجاد الله تعالى الأشياء على وفق علمه تعالى وتقديره لها في الازل ، فقد تبين أن القدر والقضاء راجعان إلى تعلق العلم الإلهي بالأزلي بالأشياء وتعلق القدرة الإلهية بها ، وهذا قد مر بيانه عند بيان ما يتعلق من صفات الله تعالى بالأشياء وما لا يتعلق ، ولكن لما كان خطر الجهل في فن التوحيد عظيما : صرح العلماء بوجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، ولا سيما أنه قد صرح بالإيمان بهما في صحيح الأحاديث

ثم اعلم أنه — وإن وجب الإيمان بالقدر لكن : لا يجوز الاحتجاج به لأقبل الوقوع توصلا إلى الوقوع بأن يقول الشخص : قدر الله تعالى على الزنا مثلا ، وغرضه بذلك التوصل إلى الوقوع في الزنا ، وللشرع الحجة عليه في ذلك ، إذ يقال له : من جانب الشرع وما أدراك أنه قدر عليك من الازل ذلك حتى تقدم عليه ؟ فأقدمك على الذنب ليس الأهوى نفسك وباختيارك ، وبذلك تؤاخذ عليه ، ولا يمد الوقوع تخلصا من الحد الشرعي ونحوه ، بأن وقع شخص في الزنا مثلا وقال

قدر الله تعالى على ذلك وغرضه التخلص من الحسد ، وللشرع الحجة عليه أيضا إذ يقال له : إنك أقدمت على الذنب ولا علم لك بتقديره عليك أزلا ، فأقدمك عليه ما كان إلا لهوى نفسك وجراءتك على الله تعالى ، وبذلك تؤاخذ ويجب عليك الحسد ، والله تعالى أعلم

الفصل الخامس

في الايمان باليوم الآخر ، وما يشمل عليه ، وبالبعث ، وما يتقدم ذلك : من أحوال الموت ، والقبر ، وما يتبع ذلك ، ورد الشبه التي ترد في هذا المقام

اعلم أنه مما يجب على كل مكاف شرعا الايمان باليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، وأوله من وقت الحشر ، وينتهي بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ولواجب الايمان به وبما يشمل عليه ، كما يجب الايمان بما يتقدمه من العلامات التي ثبتت بالنصوص الشرعية ، وبما يتقدمه أيضا من قبض الروح ، وأحوال القبر ، وأمثال ذلك مما ثبت في النصوص الشرعية الصحيحة ، وتفصيل جميع ذلك فيما سيلي عليك فنقول : —

قد وردت الآيات ، والأحاديث الصحيحة ، واتفق أهل السنة والجماعة أن لكل إنسان روحا جرت عادة الله تعالى أنها اذا كانت في جسده كان حيا وذا فارقت حله الموت ، وإن عمر

كل انسان مقدر بتخصيص الله تعالى لايزيد ولا ينقص حتى المقتول
فانه ميت باجله فاذا انقضى اجل الانسان قبض روحه الملك الموكل
بقبض الارواح ، وهو ملك من اكابر الملائكة يسمى « بعزرائيل »
فهو يقبض الروح ، أى يخرجها من مقرها ، ثم بعد وضع الانسان
فى قبره يعيد الله تعالى اليه الروح ، ويرد اليه من الحواس والعقل
ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ثم يأتيه
فى تلك الحالة ملئكان ويسألانه عن معتقده ، والحكمة فى هذا السؤال
أن يظهر لدى الملائكة المؤمن والمطيع وغيرها ، ويترتب على ذلك ،
اما تنعم الميت فى قبره ، واما عذابه ، ويستثنى من هذا السؤال من
وردت الاحاديث باستثنائه : كالانبياء وغيرهم ، كما هو مبسوط
فى كتب الاحاديث ، ثم ان الميت إما أن يقتسم فى قبره ان كان مؤمنا مطيعا
واما أن يعذب ، والمعذب إما أن يدوم عذابه الى يوم القيامة ، وإما
أن ينقطع كما فى بعض عصاة المؤمنين ، ومن أحوال القبر ضغطته ،
وهى التقاء حافتيه على الميت ، ولا ينجو منها أحد إلا من استثنى
فى الاحاديث : كالانبياء

ثم اذا تصرم الزمان ، وقرب يوم القيامة ظهرت له علامات ،
منها العلامات الصغرى التى ظهر منها فى هذا الزمان الكثير ، ومنها
العلامات الكبرى وهى عشر : ظهور المهدي ، وخروج الدجال ،
ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ، وخروج ياجوج وماجوج ،

وخروج الدابة التي تكلم الناس، وطلوع الشمس من مغربها، وظهور الدجال : ويمكث في الارض أربعين يوماً ، يصيب الكافر حتى يصير كالسكران ، ويصيب المؤمن منه كميتة الزكام ، وخراب الكعبة على يد الحبشة بعد موت عيسى عليه السلام ، ورفع القرآن من المصاحف والصدور ، ورجوع أهل الارض كاهن كفارا

ثم ينفخ في الصور النفخة الاولى فيموت أهل الارض والسموات ، والصور هو شيء كالقرن كبير جداً ينفخ فيه سيدنا « اسرافيل » أحد كبراء الملائكة ، ثم بعد مضي زمان طويل - والخلائق موتى - ينفخ في الصور مرة أخرى : فيبعث الله تعالى الموتى من قبورهم ، ويحشرهم الى الموقف ؛ وهو الموضع الذي يقفون فيه لفصل القضاء واجراء حسابهم ، ومن أهوال الموقف طول الوقوف فيه ، ودنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون على قدر الميل ، وخوضهم في العرق الذي هو أنثى من الجيفة ، ويكون خوضهم فيه على قدر أعمالهم حتى ان بعضهم ياجمه العرق إجماعاً ، وسؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتقريطهم فيها وشهادة أعضائهم وجلودهم والارض والحفظة الكرام عليهم ، ولا يصيب شيء من تلك الأهوال الانبياء والاولياء وسائر الصالحاء

ثم بعد اشتداد هول الموقف يشفع سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم « الشفاعة العظمى » وهي شفاعته في فصل القضاء بين

جميع الخلائق عند ما يشتد الهول عليهم ، ويطول وقوفهم ، فيستشفعون به فيشفع لهم عند ربه في ذلك ، وبعد ذلك له شفاعات كثيرة ، منها شفاعة في ادخال قوم الجنة بغير حساب ، ومنها شفاعة في عدم دخول قوم النار لقوم استحقوا دخولها ، ومنها في اخراج العصاة الموحدين من النار ، ومنها في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها ، ومنها غير ذلك كما جاء في الأحاديث الشريفة ، ويشفع غيره عليه السلام : من الأنبياء والرسل ، والملائكة ، والصحابة ، والشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء

ويأخذ العباد بحفهم ، وهي كتبهم التي كتبت فيها الملائكة ما فعلوه في الدنيا ، وتوزن أفعال العباد بميزان ، وجمهور المفسرين على أن الموزون هي الكتب التي اشتملت على أعمال العباد ، بناء على أن الحسنات مميزة بكتاب والسيئات بآخر ، ويجب علينا الايمان بالوزن والميزان ، وتقويض علم حقيقة ذلك الى الله تعالى ، وتحاسب الخلائق أى يوقف الله تعالى الخلائق على أعمالهم خيرا كانت أو شرا ، قولا كانت أو فعلا تفصيلا بعد أخذهم كتبها ، ويكون الحساب للمؤمنين والكافرين ، ويستثنى من ذلك من وردت الأحاديث باستثنائه ، ثم يمر الخلائق على الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم يمر عليه الأولون والآخرون ، وهو طريق النور الى الجنة ، فاللؤمنون الطائعون والذين غفرت سيئاتهم يمشون عليه ويخلصون الى الجنة ،

والكفار وبعض عصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب في جهنم مدة يسقطون في نار جهنم في حال مرورهم على الصراط ، ومرور الناجين مختلف في السرعة والبطء ، حسب مقاماتهم ، والحكمة في المرور على الصراط ظهور النجاة من النار ، وأن يتحسر الكفار بفوز المؤمنين بمد اشتراكهم في المرور ، ومما اشتمل عليه يوم القيامة وجود حوض عظيم لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يرده المؤمنون ويشربون منه عند العطش الأكبر .

ثم ان الله تعالى خلق دارين عظيمتين : احدهما دار النعيم وهي الجنة وفيها من النعيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وثانيتهما دار العذاب وهي جهنم أعده الله تعالى فيها من العذاب لكفار والمعصاة ما ترجف عند ذكره القلوب وتفسع الجلود : أعاذنا الله تعالى منها ، وهاتان الداران مخلوقتان وهما وجودتان كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث ، وبمد انقضاء حساب الخلائق ومرورهم على الصراط يدخل الجنة المؤمنون الطائمون من جميع الأمم وعصاة المؤمنين الذين غفرت سيئاتهم أو أدركتهم شفاعاة ، ويدخل جهنم الكفار وعصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب مدة ، أما الكفار فلا يخرجون منها أبدا ، وأما العصاة المؤمنون فآلهم الخروج منها ودخول الجنة بعد انقضاء مدة عذابهم أو نوالهم شفاعاة ، ثم يدوم أهل الجنة خالدون في الجنة ، وأهل

النار الكفار خالدين في النار أبد الآبدين . ودهر الدهرين ، وكل ما مر فقد ثبت بالآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجب الايمان به على كل مكاف شرعا والله تعالى أعلم

توضيحات يندفع بها بعض الشبه

الواردة على مامر في هذا المقام

اعلم أنه قد ترد بعض الشبه على بعض ما ذكر هنا في هذا المقام . ولكن هي عند من يؤمن بوجود الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وواسع علمه ، ويمتقد أن الله تعالى هو الذي اوجد هذه الأكوان من العدم ، وصورها على صور تشتمل على دقائق الحكم ، لا يصعب عليه الايمان بجميع مامر ، ولارد تلك الشبه عن عقيدته بقاطع البرهان وواضح التبيان ، واما من لم يكن مؤمنا بوجود ذلك الاله العظيم فالصواب في حقه أولا أن تقام له الأدلة على وجوده تعالى ، ثم بعد ذلك تكشف شبهته في أمثال هذه العقائد ، وتوضيح رد تلك الشبه أن يقال : إن الذي ثبت في النصوص الشرعية أن للانسان روحا تتعلق بجسده ويتسبب عنها حياته واذا فارقت بقيض لماك لها حله الموت ، فبعض علماء الاسلام خاض في البحث عن حقيقة هذه الروح ولكن لم يقم معه برهان قاطع شرعى أو عقلى على بيان حقيقتها ، وبمضهم — وهم أهل الطريق الأسلم — ترك الخوض في هذا البحث اذ لم يرد عن الشارع دليل على حقيقتها بل قد ورد في الشرع ما يشير إلى أن ترك البحث

عن حقيقتها هو الأولى ، وعلى طريقة هؤلاء العلماء يكفى في تصديق النصوص الشرعية الواردة في وجود الروح أن يعتقد المكلف أن لكل انسان روحا ، وهى شىء موجود الله أعلم بحقيقته ، وليس فى القول بوجوده ما يخالف العقل ، وعدم الاحساس به كما يقول بعض الجهمية : بأننا لا نرى شيئا يخرج من قم الميت عند موته لا يقتضى عدمه ، إذ ربما يكون عدم الاحساس به للطافته كالهواء ، أو كالأثير الذى يقول به الطيبيون المتأخرون أو لدقته جدا كالحيوانات الصغيرة جدا التى توجد فى المياه ، وكثير منها لا يرى حتى بالمجسمات للمرئى ، أو لغير ذلك ، وكونه بتلك اللطافة أو الصغر وتنشأ عنه الحياة لا غرابة فيه ، فكم من عقار أو نبات لطيف أو صغير جدا تنشأ عنه حوادث عظيمة لا تحدها المقول ، وكذلك شرارة النار اذا لامست كمية كثيرة من الأجسام القابلة للالتهاب ، وكما فى الجزء الصغير من السم إذا دخل الجسد وما يحدث عنه ، وأمثال ذلك كثير مما هو لطيف أو صغير تنشأ عنه حوادث عظيمة ، فلا غرابة فى تسبب الحياة فى الجسد عن الروح ، وان كانت أمرا لطيفا أو صغيرا جدا لا سيما ان الحياة لا تنشأ عن الروح بطبيعتها بل بخلق الله تعالى والروح انما هى سبب عادى فلا اشكال فى ذلك أصلا ، ثم وان تكن الروح بتلك اللطافة أو الصغر فلا مانع من أن يجعل الله تعالى لأملاك قدرة على قبضها وإخراجها من الجسد ، ألا ترى المغناطيس قد جعل الله تعالى فيه خاصية جذب الحديد فيجذب

أنطف وأدق برادة منه ولو لم تر بالعين ولا بجسمات المرئي ، وكل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فلا شيء يوجب الاشتباه

ثم لما وردت نصوص الشريعة بوجوب اعتقاد البعث ، أي أن الله تعالى يعيد الأموات يوم القيامة ويحييهم ، كان المشركون في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام يوردون الشبه على القول بالبعث ، ويقولون : كيف يحيي الله تعالى الأموات بعد وفاتهم الحياة وفنائهم وتفرق أجزائهم بين أجزاء الأرض ؟ فكان القرآن الشريف يرد عليهم تلك الشبه في آيات كثيرة بما معناه : إن الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، لا يعجزه شيء ، مهما كان عظيما ، ولا يخفى على علمه شيء ، مهما كان دقيقا خفيا ، والذي أوجد الكائنات من العدم بذلك الاتقان والاحكام هو قادر على إعادة الأموات بعد الفناء ، وإحيائهم للحساب والجزاء ، ويضرب لهم سبحانه الأمثال التي تقرب ذلك لعقولهم : بأن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بانزال المطر عليها فتصبح مخضرة مزهرة بهجة بعد أن كانت قاحلة يابسة لا ترى فيها أثرا للحياة إلى غير ذلك من الأمثال التي ترفع عنهم شبه البعث التي قامت عندهم

ثم إن علماء الشريعة الأعلام ، لما وجدوا للفلاسفة المذكرين للبعث شبرا أخرى ، يزعمون فيها حصول محالات عقبية على القوال بالبعث قال أولئك العلماء — رحمهم الله تعالى : إن الواجب شرعا على كل مكلف أن يعتقد بحصول البعث والإعادة ، وإن ذلك يحصل

على وجه لا يستلزم محالا عقليا ، والله أعلم بكيفية ذلك ، ولا يلزمنا لصحة الايمان بالبعث أن نبين الكيفية التي يجريها الله تعالى في أمر البعث ، بل نفوض علمها اليه تعالى ، ولكن للمحافظة على افكار الضعفاء في الدين من الاضطراب نقول في توضيح ذلك : من الممكن أن المعاد من الجسم بالبعث هو جميع أجزائه الأصلية ، أى الباقية من أول العمر إلى آخره لا الاجزاء الفضلية التى تتكون في الجسم من الاغذية ثم تتحلل ويخافها غيرها وهلم جرا ، وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن الله تعالى العظيم القدرة الواسع العلم يحفظ تلك الاجزاء الأصلية للانسان بعد موته من التفرق ، ومن زوال صورتها ، ومن دخولها في اجزاء أصلية لحيوان آخر يا كل انسانا ، وان دخلت في تركيب الاجزاء الفضلية لذلك الحيوان فتتفصل عنها عند انحلالها بموت ذلك الحيوان ، ثم عند الاعادة والبعث يعيد الله تعالى تعلق الروح بتلك الاجزاء الأصلية للانسان ويضم اليها اجزاء فضلية يكمل بها مقدار الانسان وهيكله كما كان قبل الموت سواء كانت تلك الاجزاء عين ما كانت قبل موت الانسان أو غيرها ، ويكون الاحساس بالتعذيب والتعذيب انما هو لمجموع الروح وهذه الاجزاء الأصلية . ويصدق على هذه الكيفية انها اعادة ؛ إذ قد أعيد تعلق الروح بالاجزاء الأصلية التى هى حقيقة الانسان بعد أن فارقتها ، وأعيد لهذه الاجزاء الأصلية الحياة ، وأعيدت اليها اجزاء ، فضلية كل

بها هيكل الانسان الذى كان قبل الموت ، واذا كان الحال كذلك فلا يقال من شبه أولئك الفلاسفة : ان الانسان المُنعم أو المَعتب هو غير الذى كان قبل الموت ، ولا يقال : ان الروحين متعلقان بجسد واحد فيما إذا أكل انسان انسانا وصارا بالاعتداء واحدا ، ولا يقال ان مادة واحدة حاصلة لأناس كثيرين حيث إن المشاهد على ظاهر الارض أجزاء جثث الموتي القديمة ، وقد زرع فى الارض زروع كثيرة ، وغرس فيها أشجار واخذى منها الناس ، وانعقد ذلك فى أبدانهم لحما ودما ؛ لأننا مع جميع ذلك نقول : ان الاجزاء الاصلية التى كانت مع الروح المتعلقة بها قبل الموت انسانا هى بعينها مع الروح المتعلقة بها عند البعث ذلك الانسان بعينه ، وقدرة الله تعالى وعلمه يصلحان لاجراء هذه الكيفية التى لا تتضمن محالا أصلا ، وعدم احساسنا بها لا يستلزم عدمها ، إذ يحتمل أننا نشاهد تفرق الاجزاء الفضلية ، ولا نشاهد الاجزاء الاصلية التى هى حقيقة الانسان ، اما لدقتها ، واما لطافتها ، واما لغير ذلك : وكم من العوالم لم تنزل فى حيز الخفاء ، محجوبة عن حواسنا ، ولا مانع أن تكون هذه من هذا القبيل ، والمخلص أن نصوص الشريعة نطقت بالاعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ، ونعتقد أنه سيكون على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وان احتجنا إلى هذا البيان نجد أن مثل تلك الكيفية التى

قررناها كافية وافية في اقتناع العقول ، ودفع الشبه ، كما لا يخفى على المتأمل من النصف ، وإن كنا غير مكلفين باعتقاد هذا التفصيل الذي شرحناه ، بل الذي تكلف به الإيمان بالبعث على وجه لا يستلزم محالا كما تقدم ، ثم نقول : وفي القول بالأجزاء الأصلية التي مر شرحها ، تندفع الشبه عن نعيم القبر وعذابه اللذين وردت بهما النصوص الشرعية اذ يقال : ما المانع أن الله تعالى يجعل للروح تعلقا خاصا بتلك الأجزاء الأصلية بحيث تحس بالنعيم أو العذاب وهي في القبر ، ونحن وإن كنا نشاهد الجسد قد تفرق وتلاشى ولا حياة فيه فتلك الأجزاء الأصلية يجري فيها التنعيم والتعذيب ، ولا نرى شيئا من ذلك لحفاؤها عن أبصارنا ، لدقتها ، أوللطافتها ، وكذلك تندفع الشبه الواردة على ما جاء من نصوص الشريعة أن بعض الناس هم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء ، فإنه يقال أيضا لا مانع أن الله تعالى يجعل لأرواحهم تعلقا خاصا بأجزاءهم الأصلية بحيث تكون حية حياة تقبل الرزق والتنعيم بنوع مخصوص ، هو الذي أخبرت عنه النصوص : وإن كنا لا نرى ذلك ، وكل ذلك من الجائزات العقلية التي لا تستلزم محالا وداخله تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ومن اطعم على ما يقوله المتأخرون من الطيعيين في أحوال الحيوانات الصغيرة التي لا ترى إلا بأكبر المجسمات للمرنى من أن لها إدراكا واحساسا وسعيًا على معاشها واحتراسا على حياتها ، ومقاتلة بعضها لبعض ، واحتياالا على تحصيل رزقها

وغير ذلك لم يستبعد ما قررتاه في حق الأجزاء الأصلية للإنسان وقبولها لتعلق أرواحها بها واحساسها بما يريد الله تعالى لها من نعيم أو عذاب من غير أن نشعر نحن بشيء من ذلك . والله على كل شيء قدير

ثم ما ورد من أن أعضاء الخلق وجلودهم والأرض تشهد عليهم هو من الجائزات المقوية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى كما تقدم توضيح نظيره في بيان معجزات الرسل : من أن منها نطق الجحاداة ، فحيث أن الله تعالى هو الخالق لصفة الكلام في الإنسان ولا يتوقف خلقه لها على حياة ولا غيرها كما أقيم على ذلك البرهان ، فلا مانع أنه تعالى يخلق في تلك الأشياء الكلام ، وتشهد على العصاة بأعمالهم ، وحكمة ذلك تخويف العباد من ارتكاب المعاصي عند ما تنبهرم الرسل أن أعضاءهم وجلودهم والأرض التي يصون عليها تشهد عليهم يوم القيامة ، وأيضا اظهار عظمة قدرة الله تعالى في ذلك اليوم وظهور بالغ حجته على العباد « والله الحجة البالغة »

ثم ان الصراط الذي يمد على متن جهنم لمرور الناس عليه ، كما تقدم شرحه ، ليس فيه شيء يستبعده العقل ، لكن في بعض روايات وردت في وصفه ليست من الروايات المتواترة ، وان اشتهرت أن الصراط يكون أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وهذه الكيفية

قد يسببها بعض الضعفاء وان كانت من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة القادر العظيم ، ومع ذلك فقد نازع في صحة ذلك بعض العلماء الاعلام : كالز بن عبد السلام ، والشيخ القرافي ، والبدر الزركشي ، كما نقله الباجوري على « الجوهرة » قالوا : وعلى فرض صحة تلك الرواية فهو محمول على غير ظاهره ، بان يؤول بأنه كناية عن شدة المشقة ، زاد القرافي أن الصحيح أن الصراط عريض وله طريقان ينفى ويسرى : فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال ، وعلى هذا التقرير فلا إشكال يبقى هنا حتى على أفكار الضعفاء ، ويكفي المكاف الإيمان بوجود الصراط ولو على هذه الكيفية والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم في العلامات الكبرى ليوم القيامة طلوع الشمس من مغربها ، والذي ورد في ذلك الحديث الشريف أنها تطلع من مغربها حتى تتوسط السماء ثم تعود فتغرب في جهة المغرب وتستمر بعد ذلك على عادتها الأصلية ، وهذا من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى وعظيم قدرته لا يصعب عليه الإيمان بذلك ، وقد مر توضيح جواز هذا الأمر في نظيره من وقوف الشمس ورجوعها . معجزة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسيدنا يوشع عليه السلام عند بيان معجزات الرسل وقررنا ذلك هناك بأوضح بيان : فارجع إليه ان شئت في فصل المعجزات ، والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم أيضا من تلك العلامات خروج يأجوج ومأجوج ، وهما
أمتان عظيمتان قد جاء ذكرهما في القرآن الشريف ، وإن ذا القرنين
سد عليهما طريق خروجهما من أرضهما بالسد الذي اصطنعه ، وأن
ذا القرنين قال ما معناه : إن هذا السد إذا جاء وعد ربي جعله دكاء
أي منهكما ، وفسر المفسرون مجيء وعد الله بمجيء يوم القيامة ، أي
قريبه ، وقد جاءت أحاديث صحيحة بتفصيل خروج يأجوج ومأجوج
في آخر الزمان ، وإن ذلك من علامات القيامة الكبرى فوجب على
كل مكلف الإيمان بذلك ، وما يقال من أن علماء الجغرافيا قد ساءوا
الأرض ولم يعمروا على محل يأجوج ومأجوج ، فهو كلام لا يمنع
صدق تلك النصوص الشرعية الواردة بوجودهم في الأرض ، وبيان
ذلك أنا نقول أولا : لا نسلم أن الجغرافيين ساءوا جميع بقاع الأرض
ولم يدعوا بقعة منها إلا وردوها ، وإنما ساءوا البقاع المسكونة أو
القريبة منها ، وكم من بقاع كثيرة ، وأودية ، وجبال توجد في أطراف
الأرض لم تظأها أقدامهم لاسيما في الأطراف الشمالية خاف جبال
الجليد ، ونهاية المنطقة المنجمدة الشمالية كما يعلم ذلك من الاطلاع على
شروحهم المسطورة في كتبهم ، ولعل هاتين الأمتين توجدان
في بعض بقاع الأطراف التي لم يصل إليها أحد من أهل الجغرافيا ،
وثانيا قد قال علامة المفسرين الإمام الرازي رحمه الله تعالى : إن
الآظهر أن موضع السد في ناحية الشمال ، ولا يخفى على العارف

يتخطيط الأرض أن جهات الشمال بعد سيريا توجد جبال جليدية لا تنقطع عنها الثلوج في جميع الفصول ، ولا يمكن لأحد في هذه العصور سلوكها ، ومن المعلوم أيضا أنه يوجد بمدى مسافة من الأرض ممتدة إلى انتهاء الأرض وحيث نقول : ما المانع أنه يوجد خلف هذه الجبال أراض منخفضة عنها بحيث يتسبب عن انخفاضها خفة الثلوج عنها بحيث تصالح لسكنى البشر ، وأن يكون يا جورج وما جورج سا كزين في تلك الأراضي المنخفضة ، ومن الجائز أن يكون في زوايا القرنين الذي مضى عليه إلى هذا الزمان ألوف من السنين يوجد واد منخفض موصل لتلك الأراضي وطريق لها ، وكانوا يخرجون منه للأمم المجاورين لهم خارج تلك الجبال ويقاثلونهم فسد عليهم ذوا القرنين مسلك ذلك الوادي وحصرهم خلف تلك الجبال ، وصاروا غير قادرين على الخروج من الوادي لوجود السد ، ولا يمكنهم تسلق الجبال لوجود الثلوج عليها ، ثم بعد ذلك حدثت حوادث جوية ، وتتابع نزول الثلوج عليها حتى سدت ذات الوادي وملأته حتى ساوته بالجبال التي حوله وخفي أثره ، ثم عند قرب يوم القيامة يذوب الثلج منه بأسباب جوية أو أرضية كالزلازل وينيسر للآتين المذكورين هدم السد والخروج من ذلك الوادي طبق ما جاءت به النصوص الشرعية ، ووجود الحوادث الجوية التي توجب تراكم الثلوج في بعض الأماكن مئات من السنين ثم زوالها بأسباب أخرى غير مستحيل لا عقلا

ولا عادة ، بل اذا فتشنا التاريخ نجد لذلك شواهد ظاهرة كثيرة على وجه الأرض ، وقدرة الله تعالى صالحة لاجراء تلك الأعمال كلها وانعام ذلك التدبير ، وحيث كان ذلك جائزا داخل تحت تصرف القدرة الالهية ، وقد وردت النصوص بخروج هاتين الامتين في آخر الزمان فنحن نؤمن بذلك ونصدق به ، وبما قررناه ارتفعت الشبهة التي مستندها سياحة الجغرافيين

هذا : وأما يذكر في بعض الكتب أن محل يا جوج وما جوج في المحل الفلاني من الأقاليم القريبة المعمورة ، وأن الملك الفلاني الأموي أو العباسي أرسل إلى السد من نظره إلى غير ذلك من الأخبار ، فهي من تأليفات القصاص : لا أصل لها يعتمد عليه ، وإن اغتر بنقلها بعض المؤلفين ، والله تعالى أعلم

ثم مما ذكر في تلك العلامات ليوم القيامة نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء ، وهو أمر جائز عقلا كما أن صعوده إلى السماء عند ما طلبته اليهود لتقتله هو أمر جائز أيضا ولا يترتب على ذلك أدنى محال ، فما المانع أن الله تعالى يصعده وينزله بواسطة الملائكة الذين أعطاهم الله تعالى القدرة على الصعود والهبوط بين السماء والأرض كما يأتي بياز ذلك ويحفظ الله تعالى حياته من جميع ما ينوهمه المتوهمون في حق من يصعد إلى فوق كرة الهواء ، فإن احتياج الإنسان لتنفس الهواء ما هو إلا أمر عادي والله تعالى قادر على حفظ الحياة

يدونه ، وكذلك من تلك العلامات خروج الدابة التي تكلم الناس ،
هو أمر جائز والله تعالى قادر على إعطاء الدابة صفة الكلام ، وكذلك
وجود الدخان في الأرض أربعين يوما كل ذلك من الجائزات العقلية
الداخلية تحت تصرف القدرة الإلهية لا شيء من ذلك يستلزم محالا ،
فنؤمن بجميع ذلك ، ونصدق به والله تعالى حكيم في جميع ما تقدم :
من أحوال البعث ، والسؤال ، والميزان والصراط ، وغير ذلك نجد
كثيرا منها مذكورا في مطاوي كلام علماء الاسلام ، والله يتولى
هدانا أجمعين

ولنختم هذا الباب بذكر أدلة عقلية على حصول البعث والجزاء
وهي وإن لم تكن برهانية قاطعة فهي اقناعية تدفع عندها العقول ،
وتطمئن لها القلوب ، وتواردها بمجموعها على الفكر : يجزم العقل
بوقوع البعث والجزاء ، ولا يميز للشك أدنا صاغية
اعلم أن البعث والجزاء وإن كان المشهور أن دليل جوازها عقلي كما
علمته مما مر ، ودليل حصولها بالفعل شرعي ، وهو النصوص
الشرعية الواردة في القرآن الشريف ، والحديث المنيف ، لكن إذا
دقق النظر وجد أن لحصولها دلائل عقلية اقناعية تطمئن لها القلوب ،
كما قلنا ، فاستمع ما يتلى عليك من كلام العلماء الأعلام في ذلك فنقول : —
إنه بمد إقامة البراهين القاطعة على وجود إله العالم ، واتصافه
بصفات الكمال : من الحكمة ، والعدل ، والرحمة الخلقية : لا شك أن

كل معتقد لذلك يظهر له أن من حكمته تعالى وعدله بعد أن خلق الخلق ، وأعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح ، وقدرها بها يقدرون على الخير والشر أن يمنهم عن سوء اعتقادهم به ، وعن الجهل والكذب ، وإيذاء الصالحين من خلقه ، وغير ذلك ، من القبائح ويرغبهم في عمل الخير واتصافهم بالأخلاق الفاضلة التي ينظم بها معاشهم ، ومن المعلوم أن هذين الأمرين لا يتجان إلا بربط عمل الخير بالشواب وعمل الشر بالعقاب ، وكل من الشواب والعقاب غير حاصل في دار الدنيا ، فلا بد من دار أخرى يحصل فيها ذلك ، ولا يقال : إنه يكتفى في الترهيب والترغيب بما أودع في العقول : من تحسين الخيرات ، وتقبيح المنكرات ، لأن الهوى ، والنفس يدهوان الإنسان إلى الانهماك في الشهوات الجسمية ، والذات الجسدية ، وإذا حصل هذا حصل هذا التعارض بين ما تدل عليه العقول ، وبين الهوى والنفس فلا بد من مرجح قوى ، ومماضد كامل ، وما ذلك إلا ترتيب الوعد والوعيد ، والشواب والعقاب على الفعل والترك ثم من حكمة السلطان الحكيم الرحيم أن يبعث نفوس رعيته للمعطف على الفقراء ، ليعينهم بشيء من الأموال على مصالح معاشهم ، واللائق بالاغنياء أن تكون تلك الاعانة منهم على وجه الرغبة ، وإشراح الصدر ، وبذلك يصلح حال الفقراء ، ويندفع عنهم الشقاء ويفارقهم العناء في الجملة ، وحيث إن النفوس مفعورة على حب

المال ، ولا تسمح بصرف شيء منه إلا إذا وجدت عوضا هو خير منه ، فكان من حكمة الله تعالى أن يجعل دارا غير هذه الدار يكافئ فيها بالخير المتصدقين على الفقراء والمساكين ، ويجازى ما نعى الصدقات والزكوات بما يستحقون ، فإذا علم الأغنياء بوجود دار أخرى ، وأهم يكافؤون فيها على الصدقة بعشر أمثالها فيحشدون ينفقون على الفقراء والمساكين برغبة وانسراح صدور ، لما يرجونه من نوال الأجور ، بل : يرغبون أيضا في الصدقات الجارية التي لا تنقطع فيرصدون الأوقاف الجسيمة ، ويشيدون للصلوات ، والأذكار ، وإطعام الطعام ، المساجد ، والزوايا ، والتكايا العظيمة فينتج عن ذلك من الخيرات ما لا يدخل تحت الحصر ، وكل ذلك ناشئ عن الرغبة في نعيم الدار الآخرة ، والنجاة من عذابها ، ولولا ذلك لما كان من تلك المآثر الخيرية إلا أقل القليل

ثم إن السلطان العادل الحكيم الرحيم إذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوىاء وبعضهم ضعفاء : كان من حكمته ، وعدله ، ورحمته : أن يتصرف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى ، والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم ، فمن حكمته وعدله ورحمته أن يتصرف لعيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار ، لأننا نرى المظلوم قد بقي فيها مهتتا في غاية الذلة والقهر مسلوب المال ، مفضوح العرض ، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة

فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف

ثم انه لو لم يحصل للانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف، وبيان ذلك: أن مضار الانسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات ؛ فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والاسقام تكون فارغة البال ، طيبة النفس ؛ لانه ليس لها فكر وتأمل، أما الانسان فبسبب ماله من العقل يتفكر أبدا في الاحوال الماضية ، والاحوال المستقبلية ، فيحصل له بسبب أكثر الاحوال الماضية أنواع من الحزن والاسف، ويحصل له بسبب أكثر الاحوال الآتية أنواع من الخوف ، فثبت أن حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا ، والآلام النفسانية الشديدة القوية ، أما الازدات الجسمانية فهي مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات ، لأن السارقين في مذاق الجمال طيب ، كما أن أفر الخلويايات في مذاق الانسان طيب فهو لم يحصل للانسان معاد : به تكمل حالته ، وتظهر سمادته لوجب أن يكون كالعقل سببا لمزيد اھموم ، والغموم ، والاحزان ، من غير جابر يجبر ذلك ، ومعلوم أن كل ما يكون كذلك فانه يكون سببا لمزيد الحسة ، والدناءة ، والشقاء ، والتعب الخالية عن لمنفعة ، فثبت أنه لولا حصول السعادة الآخروية لكان الانسان أخس الحيوانات ، حتى الخنافس ، والديدان ، ولما كان ذلك باطلا قطعاً ، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة ، والانسان خلق للآخرة لا للدنيا : نعم

ان هذه الدار هي كالمميز بين الاخيار والاشرار ، ليجزى الاولون
بالتواب والآخرون بالعقاب ؛ لان كل من كان شريرا فالتار أولى به ،
ويكون حظه من الوجود ما يحصله من لذات هذه الدار الفانية ، فلذلك
نراها موفورة لكثير من أهل الزيف والاشرار ، منقصة على كثير من
أهل الايمان الاخيار

ومن هذا المقام يعلم أن مذهب المنكرين للمعاد من الكفار شر
لا يماثله شر ؛ لانه يلزم عنه أنه لا حلال ولا حرام أصلا ، ومع هذا
يتمتع الممران ، وقولهم : بأن نظام العالم يكمل بمعرفة الانسان ماله من
الحقوق ، وما عليه من الواجبات الانسانية ، وهذه المعرفة تكمل له
بالملم الصحيح التام العلم ، نقول في جوابه : انهم قد غفلوا عن أن الاهواء
والشهوات ، وحسب اللذات : لا يقاومها مجرد القوانين التي يقيمها العلم
انسى ، فلا بد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ، ومرجع
يرجع اتباع طريق الخير ، وهجران سبيل الشر ، وهو الايمان بالمعاد ،
والمكافأة على الاعمال ان خيرا خيرا وان شرا شرا ، والافلية أمل الماقل
في الانسان اذا كان يعتقد أنه مثل نبات الارض ينبت ثم يزول لا إلى
رجعة ، وليس له حظ من وجوده الا لذاته الحيوانية التي يتألفها مدة
حياته ، فهما سن له العلم السياسى من الضوابط لمعرفة ماله وما عليه ،
فاذا قدر على قتل سواه وأخذ ماله الذى يبلغ الملايين بدون أن يطمع
عليه أحد من الناس ، أو هتك أشرف عرض وبلوغ لذة بدون طمّاع

أحد ، فهل يظن أن تلك القوانين التي سنّها له العلم السياسي تردعه عن ارتكاب ذلك ، لا يقول بذلك إلا مكابر ؟ ومن للمعلوم أن الإنسان مقطوع على حب ذاته ، فمن يدري به حق الدراية لا يأمن له في شيء . إلا إذا وجدته مرتبطاً بالدين ، وأنا ترى أن بعض الأمم تعتقد المعاد ويظهر فيها من بعض أفرادها ما يظهر من الفساد ، فكيف يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها ؟ فبلا شك أن فسادها يصير عظيماً جداً ، على أننا نرى الأمم التي انتشر بينها العلم الدنيوي ، لا سيما السياسي في هذا الزمان لا تزال آخذة في سبيل الشرور ، بل كلما ازداد ذلك العلم بينها ازدادت شرورها ، وفشا بينها الزنا الذي يضيع الأنساب ، ويحل عقد التناصر ، وقتل النفس ، والاتحار ، وإزالة العقل بالمسكرات ، والاحتيال : بفتونها وصنائمها على سلب الأموال ، والنفس ، والخديعة ، وكثير من الأخلاق المحلة بنظام الهيئة الاجتماعية ، وما ذلك إلا لأن علومها التي برعت فيها ليس لها في اعتقاد المعاد نصيب ، وبالنظر أن تلك الأمم لولا بقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قد هوت للدمار ، وأخذت تندحى من لوح الوجود

ومما يضحك التكلّي أن القوم الذين ينكرون البعث والمعاد لما لاحظوا أن العام لا يتكفل بنظام الهيئة الاجتماعية إلا إذا كان تاماً عاماً في جميع الأفراد الإنسانية اشترطوا في تكفله بذلك أن يكون تاماً عاماً نعم قالوا : لا بد من ذلك يوماً ما إلا أن ذلك بعيد جداً ، وربما يلزم له

ألوف من الاجيال ، فهم في رفضهم لاعتقاد المعاد . وتغنيهم في العلم هذه الاماني الواهية مثل الطيب الاحق الذي يقول للمريض بالمرض القتال : اترك الحجة ، وكل ما شئت ، واني بعد كذا وكذا من السنين آتيك بدواء يكون به شفاؤك ، فالى أن ياتي به ذلك الدواء يكون المريض قد هلك ، وأصبح عظاما نخرة ، على أنه ليس من حسن التدبير ، وكياسة الرأي ، والاخذ بالحزم مع عدم اعتقاد أولئك المنكرين للمعاد أن يجاهرُوا به بين العموم ، حتى يروا أن العلم الذي يزعمونه بمجرد متكفلا يحفظ نظام العالم قد تم وعم ، والافهم بمجاهرتهم بهذا القول الباطل قد فتحو باب الدمار على العالم ، ونعوذ بالله تعالى أن يشيع هذا الفكر بين الامم ، ومعاذ الله تعالى أن يشيع والمقول تأباه ، هداانا الله واياهم لما فيه خير الانام

والنصيحة لهؤلاء المنكرين أن يأخذوا بالحزم والاحتياط ، ويتصوروا أنهم اذا صدقوا بالمعاد ، وتأهبوا له فاذا كان حقا نجوا ، وان كان باطلا لم يضرهم هذا الاعتقاد ، غاية ما في الباب أن يقال : انه تفوتهم الذات الجسمانية ، لكن هذه الذات يجب على العاقل أن لا يبالى بها ، لامرئين أحدهما : أنها في غاية الخساسة ، لأنها مشتركة فيها الخنفساء ، والديدان ، والثاني ، أنها نقطة سريعة الفناء والزوال فالحرص عليها لا يساوى ترك الحزم والاحتياط في الامر الذي تخشى عواقبه ، والله الموفق

الباب الثالث

في رد شبه عن نصوص شرعية تعتمد في الاعتقاد ، أو
التوفيق بينها وبين ما ثبت بالدليل العقلي القاطع : مما ينافي
المعاني الظاهرة لتلك النصوص ، وفيه أربعة فصول

اعلم أننا في هذا المقام نحتاج الى ثلاث مقدمات

«المقدمة الاولى» ليعلم أن النصوص الشرعية التي يعتمد عليها
في الاعتقاد ، كما يعتمد عليها في أحكام العبادات ، وأحكام المعاملات : هي
الآيات القرآنية ، وبعض أحاديث نبوية : ثبت نقلها لنا عن الرسول
عليه الصلاة والسلام ثبوتاً قطعياً تسمى بالمتواتر ، أو بعض أحاديث
ثبت نقلها عنه عليه السلام ثبوتاً قريباً من القطعي يوجب طمأنينة
القلب ، والطمأنينة هي فوق الظن ودون اليقين ، وتسمى هذه الأحاديث
بالمشهورة ، ثم ان كل نص من هذه النصوص يجب علينا أن نتمد
فيه معناه الظاهر المتبادر منه ، ولا يسوغ لنا تأويله وصرفه الى معنى
آخر غير متبادر الا اذا قام دليل عقلي قطعي يناقض معناه الظاهر ،
فحينئذ يكون قيام ذلك الدليل العقلي قرينة دالة لنا على أن معناه الظاهر
غير مراد للشارع بل مراده معنى آخر غير ما يتبادر منه ، فتؤول النص
حينئذ ، ونصرفه الى معنى آخر غير الظاهر المتبادر على سبيل الاحتمال ،

يكون قابلا له ، وغير مناقض لذلك الدليل العقلي القطعي : هذه هي القاعدة الكلية ، في النصوص الشرعية التي اعتمدها أهل السنة والجماعة ، وإنما لم يجز إرادة غير المعنى الظاهر من النص إلا لداع يدعو إليه لأن الأصل في التخاطب إرادة المعنى الظاهر المتبادر دون خلافه ، إذ إرادة غير الظاهر من غير داع ولا قرينة يكون خلافا في الإفادة والاستفادة ، وفي ذلك من المفاسد ما لا يخفى ، وإنما انحصر الداعي إلى ترك الظاهر بمعارضة الدليل العقلي القاطع ، لأن رفض هذا الدليل رفض للأصل الذي ثبت به صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو العقل ، إذ لولاه لما أمكننا الاستدلال على صدقه عليه السلام بدلائل المعجزات ورفض العقل يوجب رفض الشرع ، وأما معارضة الدليل العقلي الظني فلا تكون داعيا لترك الظاهر من معنى النص ، لأن رفض الدليل الظني لا يوجب رفض العقل كما هو واضح لاحتمال أن هذا الظن باطل في نفس الأمر ، فلو تركنا الظاهر من النص لأجل الدليل الظني لكننا في معرض أن يكون اعتقادنا خطأ لاعتمادنا على الظن ، وحيث لا نعذر في ذلك إذا ضرورة تدعونا إليه كما تدعونا الضرورة عند معارضة الدليل العقلي القطعي ، على أن اتباع الدليل الظني وترك ظواهر النصوص يوجب اختباطا واختلاطا في الاعتقاد لا يمدد فاق الظنون كتيرة ، والاعتقاد في السرائع إنما يعمد فيه اليقين ، فكان الصواب أن يتمسك بظواهر النصوص اليقينية المبررة ، ولا يتحول

عنها مجرد الظنون، ثم قد يوجد في الأحاديث النبوية نصوص لا تتوفر في نقلها عن الرسول عليه السلام الشروط التي تبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور، فلا يكون ثبوت ورودها يقيناً بل ظنياً، وتسمى بالآحاد، ويعتمد عليها في أحكام العبادات، والمعاملات، ولا يجب أن يعتمد عليها استقلالاً في الاعتقاد حيث إنها ظنية، والاعتقاد لا يعتمد على الظن ولكن إذا نقلها العدول، وصارت معتمدة الفقهاء في الأحكام: لا يجوز إنكارها حيث لم يعارضها معارض عقلي، لئلا يجر ذلك إلى إنكار المتواتر والمشهور الموجب لإنكارها الكفر، أو التضليل والعياذ بالله تعالى: نعم إذا اكتنف الآحاد ما يقويها ويجعلها يقينية الثبوت: فيعتمد عليها حيث في الاعتقاد، كما قيل في حديث عذاب القبر، والله سبحانه وتعالى أعلم

المقدمة الثانية: اعلم أنه لا يجب علينا شرعاً من الاعتقادات إلا ما قام عليه الدليل العقلي القاطع الذي لا يحتمل النقيض أو ما قام عليه الدليل الشرعي بأن نقل لنا عن الرسول عليه الصلاة والسلام آية قرآنية أو حديث متواتر أو حديث مشهور يدل على ذلك ولا يجب علينا تقليد غير رسول الله المعصوم عليه الصلاة والسلام فيما ثبت عنه قطعياً وإنما إذا ثبت لنا مسألة اعتقادية عن أكبر علماء الأمة الإسلامية من غير دليل عقلي قاطع أو دليل شرعي ثابت قطعياً عن الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يجب علينا تقليده في تلك المسألة

لا سيما اذا كانت مناقضة لظاهر من ظواهر نصوص الشريعة التي تعتمد في الاعتقاد: نعم اذا اول بعض العلماء الذي يعتمد عليهم في فهم النصوص الشرعية بعض تلك النصوص بتأويل مناسبتا لموافق للقواعد الشرعية والاصول العربية فالأخذ بتأويله سائق غير مضر في عقيدتنا اذا ظهر لنا تأويله داع قوي مثل الدليل العقلي القاطع الذي يحمل على التأويل وصرف النص عن ظاهر معناه فانه حيث يكون الأخذ بتأويله هو الصواب ولا يقال إننا قلدنا ذلك العالم في الاعتقاد وانما يكون اعتقادنا ممتدا على النص وقلدناه بفهم النص وتأويله لانه هو أعلم منا بذلك، فمن هنا يظهر لك خطأ بعض أهل هذا العصر في تقليد فلان الفلكي أو فلان الجغرافي أو فلان الجيولوجي المشهورين في فنونهم في بعض مسائل ربما تكون مخالفة لظواهر نصوص الشريعة التي تعتمد في الاعتقاد فهذا الحال ربما يوقع هؤلاء المقلدين في الخروج عن الدين — والياذ بالله تعالى وهم لا يشعرون، والذي يوقع أولئك المقلدين في تقليد فلاسفة هذا الزمان في تلك المسائل هو أنهم نظروا لهم أدلة في بعض مسائل فنونهم يقينية قطعية كأدلتهم في المسائل الحسابية والهندسية وبعض التجريبات الطبيعية المحسوسة فافترسوا بهم، وأوقعهم الوهم في اعتقاد أن كل ما يقوله أولئك الفلاسفة صواب يقيني الثبوت وأنهم لا يعتمدون في أدلتهم في جميع فنونهم إلا على اليقين ولم يدركوا أنه يوجد فرق بين أدلة المسائل الحسابية وما ذكر معها وبين أدلة كثير

من المسائل الفلكية مثلاً بأن تلك يقينية وهذه قد يوجد بينها كثير من الظنون والتخمينات وقياس الغائب على الشاهد الذي قد يكون في نفس الأمر قياساً فاسداً ، وإن قيل إن بعض تلك المسائل التي يقلد بها المقلدون فلاسفة هذا الزمان تكون مجتمعة عليها عندهم ، قلنا إنا معشر المسلمين لسنا بأموربين في شريعتنا بتقليد إجماع إلا إجماع هذه الأمة المحمدية ، أي إجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة على أن إجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض تلك المسائل قد يكون مبنيًا على دليل ظني فلا يفيد عصمة إجماعهم من الخطأ لا سيما في المسائل التي تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما في المسائل الفلكية والجوية ؛ فإن معظم أدلتهم فيها الحدث والتخمين وقياس الغائب على الشاهد كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التي تقر فيها تلك المسائل ، ولنا عبرة فيما حدث على مذهب المتقدمين من الفلاسفة في وجود الأفلak وما لها من الأحكام ؛ فإنه قد مرت عليه المئات من السنين وهم مجمعون عليه ، وكم ألفوا فيه من الكتب ، وكم دونوا من الأصول والقواعد ، وكم صوروا صور الأفلak وذكروا لها من الأحكام الطويلة العريضة فجاء المتأخرون وأبطلوه من أصله وصار بينهم يعد خرافة من خرافات البشر ، إذا تقرر هذا فاعلم أنه كان من حق أولئك المقلدين

لفلاسفة هذا الزمان في بعض المسائل المخالفة لظواهر نصوص الشريعة الإسلامية أن يبحثوا عن أدلتهم فيها ويطلعوا عليها، فإن كانت ظنية فلا يلغونها بالآلة، ولا يتركوا اعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم القطعية الثبوت عن رسولهم الصادق المصوم، وإن كانت أدلة يقينية ولم يبق معها ريب في دلالتها على ما يناقض ظهور نصوص الشريعة فحينئذ يسوغ لهم تأويل تلك الظواهر والتوفيق بينها وبين تلك المسائل كما هو القاعدة التي مر تقريرها عند أهل السنة والجماعة، وإن لم يكن أولئك المقلدون أهلاً للتأويل فلا يرجعوا فيه إلا لعلماء الدين الأعلام فيفهمونهم التأويل اللازم الجارى على قواعد الشريعة وأصول اللغة العربية التي جاءت بها النصوص الشرعية ويؤمنون على إيمانهم الذي به سعادة الدارين والله الموفق

«المقدمة الثالثة»: أن الشريعة المحمدية، بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال، وإلى كيفية عبادته وأداء شكره، وإلى الأحكام التي توصلهم إلى انتظام المعاش وحسن المعاد، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هي النواميس القائمة في السماويات أو في الأرضيات وأمثال ذلك فليس شيء من نحو هذا من مقاصد الشرائع بل هذه المباحث هي معارف تتوصل الناس إليها بعملة ولم يربما يتفهمون بها في دنياهم وربما يكون حظهم فيها مجرد الاطلاع، والشرائع

لا تلتفت إليها أولا وبالذات ولا تعتنى بتفاصيلها : نعم قد تذكر شيء منها مجالا على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية ، فتذكر مثلا خلق السموات والارضين وابرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الأكوان ، واعطاء كل منها نظامه على سبيل الإجمال ؛ لأنّ جل أن يكون ذلك دليلا عقليا للناس على وجود إله العالم وعلى اتصافه بالعلم ، والقدرة ، والحكمة إلى غير ذلك ، وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو إلى ذلك يكون مرجعه إلى مقاصدها ، اذا تقرر هذا فنقول : —

الفصل الأول

في رد الشبه من النصوص الشرعية الواردة في السماويات
والأرضيات ، أو التوفيق بينها وبين ما قام عليه
الدليل العقلي القاطع مناقضا لظواهرها

اعلم أنه قد ورد في نصوص الشريعة الإسلامية — التي تعتمد في الاعتقاد : أن الله تعالى خلق سبع سموات ، وخلق جسما كبيرا فوق تلك السموات يسمى كرسيًا ، وجسما آخر فوقه يسمى العرش ، وأن بيتنا وبين تلك الأجسام مسافات عظيمة — كما أن بينها مسافات ، وأنه تعالى خلق جسما كبيرا يسمى لوحا ، وجسما آخر يسمى قلما ،

لإثبات ما يكون في العالم وتسديره ، لا عن حاجة إلى جميع ذلك ، بل لحكم هو يعلمها سبحانه ، وأنه خلق دراهم تسمى الجنة أعدّها لنعيم الطائعين ودرهم أخرى تسمى جهنم أعدّها لعذاب غير الطائعين ، بعد خراب عالم الأرض والسموات ، وبعث الناس بعد الموت كما تقدم ، وأنه خلق الكواكب وجعلها زينة السماء الدنيا ، أي السماء القربى من الأرض فقال بعض علماء الإسلام: هي مركوزة في نفس السماء ، وهو قول جمهور المفسرين ، وقال بعضهم: هي دون السماء بينها وبين الأرض ، وهو منقول عن مكي ، وعن وهب ، ونقله في مختصر الهيئة السنية لأقرماني عن كثير من المفسرين وغيرهم ، ونقل الشيخ مرعي الحنبلي في « عجائب المخلوقات » حديثاً آحادياً يدل عليه ، وكذلك نقل هذا الحديث أبو جعفر محمد بن عبد الله الكسائي في كتاب « الملكوت » ونقل الرازي أثراً عن كعب في تفسير سورة « القدر » صريحاً في أن الشمس دون السماء ، وعلى هذا القول فيكون مني كونها زينة السماء الدنيا أنها زينة لها بحسب مرأى الناظرين إليها — وإن كانت تحتها وهذا لا يلزم منه أن تكون مركوزة في نفس السماء ، ولعل أصحاب هذا القول يتأولون قوله تعالى : « وجعل القمر فيهن نورا » أي في السموات نظير هذا التأويل ، وورد أيضاً من نصوص الشريعة ما يفيد أن كلام الكواكب يسبح في فلك ، فقال بعض علماء الإسلام : إن فلكك هو جسم يحمل الكواكب ، وقال بعضهم : هو مداره ، أي الحيز

الذى تسير فيه من الفراغ ، وهذا قول الضحاك — كما فى الرازى ،
والذى عليه جمهور علماء الاسلام ، أن السماء مرئية لنا — كما يستفاد من
ظاهر بعض النصوص ، وقال بعضهم ، إنها غير مرئية ، وأما المرتضى
الهواء ، نقله فى «مجائب المخلوق» عن القاضى أبى بكر بن العربى ، ولا بد
أنه يؤول النص الذى يدل ظاهره على أنها ترى بتأويل مناسب ، وورد
أيضا فى النصوص الشرعية أن الله تعالى خلق سبع أرضين ، فقال
بعض العلماء : أن المراد بها أقاليم أرضنا السبعة ، وقال بعضهم : إن
المراد طبقات الأرض المترامية على بعضها ، وروى فى بعض الآثار
عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن كل أرض منها كأرضنا وفيها عالم
كعالمنا ، وورد من النصوص ما ظاهره أن الأرض بسيطة كما فى قوله
تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » وهو مذهب جمهور علماء
الاسلام ، وقال بعضهم : أنها كروية ، وممن قال بذلك الامام الرازى
وتأولوا قوله تعالى : « دحاها » بأنه جعلها صالحة لسكنى الحيوانات بعد
أن لم تكن كذلك ، وظاهر بعض النصوص يفيد أن الشمس هى التى
تسير كما قال تعالى : « والشمس تجري لمستقرها » وقوله تعالى : « وجدها
تطلع » و « وجدها تقرب » وكما يفهم من استعمال أهل الشرع
فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده من قولهم : طعت الشمس ،
وغربت الشمس ، وظاهر ذلك أن الأرض ساكنة وإن لم يرد تصريح
بمركبتها ولا بسكونها ، فيجب علينا مشر المسلمين الايمان بما تعطيه

ظواهر هذه النصوص ، والأخذ بقول جمهور العلماء فيما فهموه منها ، وتأويل بعض العلماء المخالف للجمهور وإن كان الأخذ به لا يضر في الدين بفساد الإيمان ؛ لأنه جار على تأويل مناسب ولكن حيث لم يظهر لنا داع قوي يدعو لذلك التأويل فالأخذ بقول الجمهور واعتمادنا على ما فهموه من النصوص يكون هو الموافق لقواعد الدين الإسلامي

فإن قيل : إن المتأخرين من الفلاسفة الفلاسكيين يدعون أنهم بأرصادهم وبوسائل الآلات التي اخترعوها للنظر في أحوال السماويات قد ثبت عندهم أنه لا يوجد في الكون إلا الكواكب ، وإن أرضنا التي نحن عليها هي كرة ومدودة من جملة الكواكب ، وأن الشمس واقعة في الوسط تدور فقط على محورها دائرة بطيئة ، والأرض وجميع الكواكب تدور حولها بواسطة ناموس يسمى ناموس الجاذبية ، وأن لأرضنا كما لغيرها من الكواكب دورتين دورة سنوية حول الشمس منها تتولد الفصول الأربعة ، ودورة يومية على محورها ، ومنها تتولد أوقات الليل والنهار بواسطة مقابلة نور الشمس تارة والاستتار عنه أخرى ، وأن الذي نراه من الزرقة إنما هو لون الجو وليس هو سماء إذ لا وجود للسموات عندهم ، ولا يقولون بوجود أرضين غير هذه الأرض ، وشاعت أقوالهم هذه وأخذ بها الكثير من عامة الإسلام من غير التفات إلى التوفيق بينها وبين النصوص الشرعية التي تقدمت

فكيف يكون التوفيق وما الحكم في ذلك ؟ قلنا : قد تقدم لك أنه يجب علينا اعتقاد ظواهر النصوص الشرعية ، واعتماد ما عليه الجمهور في فهم معانيها ، ولا يجوز لنا تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها إلا لدواع قوى ، وهو قيام الدليل العقلي القاطع المناقض لظواهر النصوص ، ولا يجوز لنا تقليد علماء الاسلام في أمر الاعتقاد من غير أن يظهروا لنا دليلا عقليا أو شرعيا فكيف بمن سواهم ، وعلى هذا فن بلغه منا معشر المسلمين أقوال أولئك الفلاسكين المتأخرين من غير دليل عقلي قاطع يثبت كل مسألة من المسائل التي يدعونها فيما تقدم ، أو بدليل ظني لا يتج اليقين فعليه ألا يلتفت لكلامهم ، ولا يتحول عن اعتقاد ما تعطيه ظواهر النصوص الشرعية التي تقدم نقلا ، ولا يهمل اعتمادها على ما فهمه جمهور علماء الاسلام منها ، وهذا هو الواجب عليه ، والحافظ لايمانه من الاختلال : وأما اذا بلغ أحدا منا كلامهم المتقدم مع اقامتهم له الدليل العقلي القاطع الدال على كل مسألة من المسائل المذكورة من مسائلهم ، ويكون ذلك مناقضا لظواهر النصوص التي تقدمت بخصوص تلك المسائل فعليه أن يرجع حينئذ إلى القاعدة الكلية التي تقدم لنا تقريرها ، وهي تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظواهرها الى احتمال معان تناسب ما قامت عليه أدلة أولئك القوم العقلية القطعية اليقينية ، ولا ضرر عليه في ذلك بعد أن يتحقق صحة أدلتهم وافادتها اليقين الذي لا شبهة فيه . اذا تقرر هذا فنقول

في رد شبه هذا المقام ، والتوفيق بين نصوصه وبين ما يفرض تحققه من الأدلة اليقينية المناقضة لتلك النصوص

أما قول أولئك الفلكيين ان الكواكب قائمة في الفضاء بناموس الجاذبية وليست مركوزة بسماء فهو أمر جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ويكون ذلك الناموس من جملة الأسباب المادية التي وضعها الله تعالى في الكواكب ، فإذا قام لنا الدليل العقلي التقاطع على قيام تلك الكواكب في الفضاء كما يقولون : نتأول النص الذي ظاهره أن الكواكب مركوزة في السماء وهو قوله تعالى : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » بأنه من المحتمل أن يكون مراده تعالى بكونها زينة أنها زينتها بحسب رأى الرائي وإن كانت تحتها — كما قال بذلك جملة من علماء الاسلام ، وتقدم نقله عن مكي ، ووهب ؛ وكثير من المفسرين ، وكعب ، وتأخذ بقول من قال من علمائنا : ان المراد بفلاك الكواكب هو مداراتها من الفضاء الذي تدور فيها لا أنها أجسام تحملها ، ولنكون قد جرينا على قاعدة التأويل عند قيام الدليل القطعي المعارض مع الموافقة لجملة من العلماء على أسهل وجه

وأما قول أولئك الفلكيين ان المرئي لنا من الزرقة هو لون الجو ، فغاية ما عندهم من الدليل أن نظاراتهم المجسمة لم تكشف لهم جسما غير الكواكب قائمة في الفضاء ، ولذلك أنكروا وجود السماء ، ونقول : ما المانع أن السماء لشدة بعدها عن الأرض بمسافات شاسعة

ماعدت النظارات سالحة لأن تحقق جسمتها لهم ، و يمكن أن يكون
لونها هو الذي يخلق حقيقة جسمتها ، وهذا هو الذي أوهمهم عدم
وجود جسم في الفضاء غير الكواكب ، على أن بعض علماء الاسلام
وهو القاضي أبو بكر بن العربي قد قال : بأن السماء غير مرئية ، وتأول
النص الذي ظاهره أنها ترى — كما تقدم ، ولا يلزم من عدم رؤيتها
عدم وجودها كما هو القاعدة المسماة ، من أنه لا يلزم من عدم الوجدان
عدم الوجود ، والله تعالى أعلم

وأما قول هؤلاء الفلكيين : ان الأرض كرة فيبعد اقامتهم لنا
الدليل العقلي القاطع الدل على كرويتها لا مانع لنا من القول به ،
ويمكن تأويل النص الذي ظاهره أنها مبسوطة كقوله تعالى : «والارض
بعد ذلك دحاها » بأن جعل سطحها صالحا للسكنى بعد أن لم يكن
كذلك مع أنها في نفسها كرة كما قال به الامام الرزى وغيره ، ولا
بد أنه قام الدليل القاطع لدى من قال من علماء الاسلام بكرويتها ،
والله تعالى أعلم

وأما قولهم : ان الشمس لا تسير حول الأرض ، وانما لها دورة
بطيئة على محورها والارض هي التي تدور دورتين ، احدها
سنوية حول الشمس تتولد منها الفصول الأربعة ، والاخرى
يومية على محورها تتولد منها اوقات الليل والنهار ، فنقول : هذا من
الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فاذا أقاموا

لنا الدليل العقلي القاطع على ذلك فلا مانع من القول به ، وتناول
 مآظهم من النصوص الشرعية أن الشمس تسير وهو قوله تعالى :
 « والشمس تجري لمستقر لها » بأن المراد من جريها هو دورانها على
 محورها ، وانها تجري إلى استقرار يكون لها بعد ذلك عند ما يخرب
 عالم السموات والأرض بمجيئ يوم القيامة ، فانها حينئذ تقف عن تلك
 الدورة ، وأن سبحها في فلسكها عبارة عن دورانها على محورها في الحيز
 الذي هو فلسكها — كما تقدم أن الفلك هو الحيز في تفسير بعض
 علمائنا ، وأما الأرض فانه وان لم يرد تصريح في النصوص الشرعية
 بحركتها أو بسكونها ولكن نسبة الجري والسبح في الفلك إلى الشمس ،
 وظواهر استتمالات الشرع ، وأهل المصور الإسلامية بتدل بالظاهر
 على أنها ساكنة ، والحركة اليومية التي نراها إنما هي للشمس
 والكواكب لا للأرض ، فإذا أقام لنا هؤلاء الفلاسكيون الدليل العقلي
 القاطع على أن تلك الحركة اليومية للأرض تدور على محورها يمكننا
 أن نصرف النص الذي ظاهره سير الشمس على ظاهره — كما تقدم
 كما يمكننا أن نقول : ن استتمالات الشرع فيما يدل ظاهره على أن
 الدورة اليومية للشمس لا للأرض ، وجري على ذلك استتمالات
 المصور الإسلامية ، إنما كان ذلك جريا على الظاهر المشاهد للعامة ،
 ومجارية لاستعمال الأمم وما أقاموه في نظرهم ، وتكون هذه المسألة
 من جملة المسائل التي لم يؤخذ لارسال بشرحها للعموم ، لأن كشف

حقيقتها ليس من مقاصد الشرائع لما تقدم أن مقاصد الشرائع إنما هو بيان التوحيد ، والعبادات ، ونظام المعاش ، وأيضا بيان تلك المسئلة ربما قد يعجز عن فهمه كثير من العامة ، بل ربما يكون فيه للعامة اضطراب واختلال لاسيما الضعفاء منهم الذين يجدون ذلك مخالفا لمشاهدتهم ، ولستأ نقول : ان فهم هذه المسئلة يصعب على أجلاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين حازوا من المعارف النبوية ما يؤهلهم لفهم أعظم المسائل وأدقها ، بل نقول : ان فهمها يصعب على العامة لاسيما أهل البوادي ، ولينظر لو قيل للعرب الجاهلية : ان الأرض هي التي تدور والألم على ظهرها ولايسةطون عنها ولا يفصل عنها ماء البحر ونحو ذلك ، وهم يشاهدون بأبصارهم أن الدائر حول الأرض إنما هو الشمس والكواكب ماذا يكون حالهم حينئذ وما كان يظهر فيهم من المخالفة والامتناع عن التصديق لهذا القول ؟ وانظر الى ما استبعدوه وأنكروه من أمر البعث وأمثال ذلك ، ولكن الشرائع في غنية عن بيان مثل مسألة الأرض ، إذ ليست من مقاصدها ، وأما بيان البعث فهو من مقاصدها لما فيه من الترهيب والترغيب المصلحين للأمم فلذلك لم تترك بيانه وان صعب فهمه على كثير ، بل ذكرته وأقامت الدلائل عليه ، والمخلص أن الشرع جرى في استعماله على ظاهر الحال . ويسمى ذلك في اصطلاح اللغة تجوزا ، ولم يظهر الحقيقة للشعب لما قدمنا ، وهكذا نرى لآزمن يعتقدون دورة

الأرض يجرون في استعجالهم على ما هو ظاهر الحال ويقولون : طلعت الشمس وغربت ، ولم نسمع أحدا منهم يقول : قابلتنا الشمس أو استترنا عنها ، وكل هذا جائز في الاستعمالات اللغوية ، لقيام الصورة الظاهرية بالمشاهدة

وليعلم أن جميع ما فررناه هنا — وإن كان سائنا لنا ولا ضير فيه ، إلا أننا لا نقول به إلا بعد إقامة الدليل العقلي القاطع على صحة قول هؤلاء الفلكيين ، والا فنحن متمسكون بالظواهر ، لانفارقها ولا نلتفت إلى أقوالهم وإجماعهم ، إذ ليسوا بمصومين من النلط كما لم يمعهم أسلافهم ، والله تعالى أعلم

وأما إنكار هؤلاء الفلكيين لوجود السموات السبع ، والعرش ، والكرسى ، والقلم ، واللوح ، والجنة : والنار : فهذا ليس لديهم دليل عليه ، إلا أنهم ما وجدوا هذه الأشياء ولا رأوها بنظراتهم المجسمة ، ونقول : إن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود في نفس الأمر ، وهذا مسلم عند جميع العقلاء فانكارهم لا يعبأ به ، ثم إننا نحن وإياهم متفقون على وجود الفضاء الذي لا يتناهى فما المانع من أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وراء عالم الكواكب بعد تسليم أن الكواكب قائمة في الفضاء ، وتلك الأجسام تكون بعيدة عنا بمسافات شاسعة لا تدركها نظاراتهم ، أو أنها وإن ادركت بها السماء الدنيا التي هي أول تلك الأجسام قربنا تكون تلك السماء ملونة بلون يوجب عدم تحقق

جسميتها بالنظارات ، فهم لم يروا بنظاراتهم ولم يتحققوا إلا جسمية الكواكب ، فانكروا تلك الأجسام وهي موجودة في الفضاء الواسع الشاسع ، وحيث إن ذلك جائز محتمل داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى بأن يخلق سبحانه تلك الأجسام ويقيمها في ذلك الفضاء — كما أقام الكواكب ، وقد أخبر بوجودها الصادق عليه السلام ، فنحن نؤمن بوجودها وليس لنا تأويل نصوصها الواردة فيها ، إذ لا داعي لذلك لعدم قيام دليل قاطع ينقض وجودها ، ومجرد انكار أولئك القوم ليس دليلا ظنيا فضلا عن أن يكون دليلا يقينيا ، والله تعالى أعلم وأما انكارهم كون الأرضين سبعة فهذا أيضا لا دليل لهم عليه ، فغاية ما عندهم أن يقولوا إننا لم ننظر غير الكواكب وهذه الأرض ، ونحن نقول : أولا أنه لم يتفق جميع علماء الإسلام الذين يعتمد على فهمهم للنصوص الشرعية على حمل النص الذي يدل على وجود سبع أرضين على ظاهره : من وجود سبع أرضين منفصلة مستقلة كل واحدة منها ، بل بعضهم قال : المراد بها أناليم أرضنا السبعة ، وبعضهم قال : المراد بها طبقات أرضنا ، وثانيا إذا جرينا على ما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن كل واحدة منها منفصلة مستقلة مثل أرضنا ، وإن في كل منها عالما كما لنا فهذا شيء من الجائزات العقاية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى الذي أوجد هذه الكواكب العظيمة التي يوجد بينها ما يزيد في العظم عن أرضنا بمئات الألوف ، فما المانع أن يكون الله تعالى قد

خلق ست أرضين غير أرضنا ، وتكون تلك الأرضون قاعة
في الفضاء كما يقول أولئك الفلكيون في أرضنا وعدم رؤيتهم لها
بنظاراتهم يمكن أن يكون بسبب أنها مظلمة السطح لا ترى
كما أن القمر لا يرى عند المحاق ، ويمكن أنهم يرونها بين الكواكب
ويحسبونها من جملتها ، ولا غرابة في ذلك على أصولهم فكثير منهم
من يزعم أن في الكواكب سكانا ، ويستدلون على ذلك بأدلة
ظنية تعلم من الاطلاع على كتبهم فحيث قد تبين أن وجود سبع
أرضين لا مانع منه ، وقد أخبر به الصادق ، فنؤمن بوجودها ولا
نلتفت إلى كلام هؤلاء الفلكيين الذين لا سند لهم في انكارها ، ويسوغ
لنا تفسيرها بكل من التفسير المتقدمة حتى على قول ابن عباس رضي
الله تعالى عنهما مع توجيهه بما قدمناه ، والله تعالى أعلم

وقد بقي نص في القرآن الشريف ترد على ظاهره الشبهة
على رأى الفلكيين المتقدمين والمتأخرين ، وهو قوله تعالى في قصة
ذى القرنين « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة »
فإن ظاهره أن الشمس تغرب في عين من عيون الأرض ، وكان
يجب علينا الإيمان بمعتقدنا الظاهر . لكن قد قام الدليل العقلي القاطع
من لدن المتقدمين على أن الشمس أكبر من الأرض بكثير ودخول
الجسم الكبير في الصغير مع البقاء على مقدارها من المحال ، وقد قام
الدليل القاطع أيضا على أن الشمس لا تغرب في نفس الأرض

وعلى هذا فقد صرف علماء الاسلام هذا النص عن ظاهره إلى غير ما يتبادر منه ، فقالوا : يحتمل — والله أعلم بمراده — أنه تعالى أراد أن ذا القرنين لما بلغ ذلك المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرائي تغرب في عين حثة ، لأن الناظر إلى الشمس في سواحل البلاد الغربية يتخيل أن الشمس تغرب في بحرها الغربي المحيط بها ، وذلك البحر كثير الحماة السوداء والظلمة ، وذو سخونة وليس مراده أنها تغرب في عين بالفعل ، ولذلك قال : « وجدها تغرب » ولم يقل فإذا هي تغرب مثلاً من العبارات التي تفيد حكاية واقع الأمر نصاً ، وهكذا يقول الرجل منا : أتى من المكان القلاني وجدت الشمس تغرب في البحر ، أو خلف الجبل ، أو في الوادي والحال أن اعتقاده أنها لم تغرب في واحد منها وإنما حكى صورة رؤيته ، يؤخذ هذا التأويل من الرازي ، والجلالين ، والكواشي كما نقله في « عجائب المخلوقات » ، قال الرازي : وما قاله أهل الاخبار من أن الشمس حقيقة تغرب في العين كلام على خلاف اليقين ، وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل . والله تعالى أعلم

الفصل الثاني

في رد الشبه عن النصوص الواردة
في شؤون الملائكة والجن

قد تقدم لنا في الباب الثاني وجوب الايمان بالملائكة ، والآن نقول : إنه قد وردت نصوص الشريعة متواترة أو مشهورة وأحاديث آحادية لكن لكثرتها ، وتعدد طرقها بلغ ما يستفاد منها درجة التواتر يدل جميع ذلك على أن الله تعالى خلق أجساما لطيفة نورانية تسمى ملائكة ، قادرة على الشكل بأي شكل أرادت ، وأنها تقطع المسافات التي بين السموات والأرض في مدة قصيرة جدا ، وأنها تمر أما منا ولا نراها ، وأنها تفعل أفعالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر ، وأنها موكلة بمحادثات هذا الكون : كنزول الأمطار ، وتدبير عالم الحيوان والنبات ، وغير ذلك ، وأنه تعالى خلق أجساما أخرى تسمى جنا تشابه الملائكة المذكورين في بعض خواصها : من نحو الاقتدار على التشكل ، والاحتجاب عن الابصار ، والاقتدار على أعمال عظيمة ، ولكنها تختلف عنهم بأنها ليست نورانية مثلام ، وأنها مكلفة كالbشر ، فمنهم المؤمن الطائع ، والعاصي ، والكافر . وقد وردت شبه على وجود الملائكة والجن وشؤونهم : من نحو الاقتدار على التشكل ، والأعمال الشاقة ، مع أنهم أجسام لطيفة وغير ذلك من بعض الفلاسفة المتقدمين وتبهم المتأخرون ، ونقول في بيان رد تلك الشبهة ، وإظهار أنها أوهام

لا تقوم لدى الايمان بعظمة قدرة الله تعالى على إيجاد الملائكة والجن في تلك الشؤون والأحوال

اعلم أنه من الممكن الجائز عقلا أن الله تعالى عظيم القدرة ، واسع العلم ، قد خلق الملائكة من مادة لطيفة كإداة الهواء أو الأثير الذي يقول به المتأخرون من أنه مادة لطيفة جدا مائة الكون لا ترى ، وقد كونهم سبحانه من تلك المادة ، وجمع أجزاءهم بكيفية صالحة لتلك الخواص والشؤون التي ذكرناها لهم كما كون سبحانه الحيوان من العناصر الجادية بكيفية أكسبته قبول الحياة ، وجميع قواها من الإدراك والحركة وغير ذلك بعد أن لم يكن للعناصر شيء من ذلك ، ويحتمل حينئذ أن عدم رؤيتنا إياهم لشفافتهم ولطافتهم كالهواء والأثير ، على أن الأمر ظاهر جدا على ما ثبت لدينا معشر المسلمين من أن الرؤية بمحض خلق الله تعالى فمن الممكن أن الله تعالى لا يخلق رؤيتنا لهم عند مرورهم أمامنا ، ثم إن اقتدارهم على التشكل مع أنه جائز عقلا دخل تحت تصرف قدرة الله تعالى يمكن توجيهه وبأن كبرياء العقل بإمكان أن الله تعالى كون تلك الأجسام على كيفية يسررون بها على تناول كمية من الهواء أو الأثير أو نظير ذلك ونكتيها رتكوينها على الصورة التي يريدونها ثم يلبسونها كما يريد الرب فيظهِرون للابصار بتلك الصور ، وفي الأعمال الكيماوية

التي أقدر الله تعالى البشر عليها من تحويلات الأجسام إلى بعضها
كتحويل الكثيف لطيفا ، واللطيف كشيئا ما يقرب فهم ما قررناه
إلى العقول ، وحيث أن تشكل تلك الأجسام كيفما كان هو مستند
إلى عظمة قدرة الله تعالى الذي تدهش أعماله الأفكار فيما أعطاه
للحيوان والنبات من الخواص ، فلا غرابة في ذلك ، وكل مؤمن
بذلك الإله ، وبمظيم قدرته ، وواسع علمه لا يستبعد حصول
ما ذكر للملائكة

وأما أنهم يعملون أعمالا عظيمة تمجز عنها قوى البشر مع أنهم
أجسام لطيفة فيمد النظر إلى أعمال الرياح التي تقلع الأشجار
العظيمة ، وتهدم الأبنية الجسيمة ، وأعمال القوة الكهربائية التي تجر
الاثقال التي يعجز عنها ألوف الرجال لا تجد في نسبة تلك الأعمال
للملائكة مع أنهم أجسام لطيفة شيئا من الغرابة ، لا سيما وأن الذي
يقدرهم على تلك الأعمال هو الله تعالى الذي لا يعد ذلك بالنسبة
إلى عظيم قدرته شيئا صعبا ، وإذا نظرنا إلى أن بعض الناس يكسر
بقوة ذراعه الحديد ، وما هي قوة ذراعه إلا عمل أعصابه مع عضلاته
التي تنتهي أخيرا إلى مخه اللطيف النعيف الذي هو مبدأ حركة
الأعضاء ، على ما يقوله أولئك الفلاسفة ، والمخ لطافته لا يتحمل أذى
مصادمة من جسم غريب ، بل صعود نقطة دم رائدة على القدر
اللازم له قد تفسده وتمدم صاحبه الحياة ، ظهر لنا أن الله تعالى قادر

على اعطاء اللطيف قوة لا توجد في الصلب الكثيف : سبحانه من
قادر عليم

واما أن الملائكة يقطعون المسافات الشاسعة بين الاجسام السماوية
وبينها وبين الأرض بعدة قصيرة جدا فنقول : لا مانع منه عقلا
لأن سرعة الحركة ليست محصورة بمحد يسير فينظر إلى ما قاله
أولئك الفلاسفة : من أن الجسم الساقط إلى الأرض في أول ثانية من
سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدما ، وإذا كان سقوطه إلى الشمس
تكون سرعته في تلك الثانية ريمائة وخمسين قدما ، ثم أن الجسم
يسقط في أى عدد كان من الثواني بعد الثانية الأولى ما يساوى
مقدار ما يسقط في الثانية الأولى مضروبا في مربع ذلك العدد من
الثواني ، فبالأمل في هذا الناموس يعلم ما تبلغه سرعة حركة
الاجسام من العظمة التي يحنار فيها الفكر ، وكذلك عندهم في علم
الهيئة أن نجم المشتري يجرى ثلاثين ألف ميل في الساعة ، أى أسرع
من كاة مدفع ثمانين مرة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان ،
وسرعة أجزائه الاستوائية في دورانه على محوره أربعائة وسبعة
وستون ميلا كل دقيقة ، ففي الساعة يقطع كل جزء من تلك الاجزاء
سبعة وعشرين ألفا وتسعمائة وعشرين مرة ، والمشتري أكبر من
أرضنا بالف وأربعمائة مرة على ما يقوله الفلكيون منهم ، فالذى جعل
هذا الجسم الكثيف العظيم وكل جزء من أجزائه الاستوائية تقطع

تلك المسافة الشاسعة في تلك المدة الجزئية لا يبعد على قدرته أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات بين السموات والارض في مدة قليلة جدا وان كانت هذه المسافات أكثر بكثير من المسافات التي يقطعها المشتري وأجزاءه ، لكن النظر الصحيح في سير ذلك الكوكب يقنع العقل بان قدرة الله الذي سيره ذلك السير صالحة لأعظم ما يكون من جنس هذا العمل لاسيما وناموس الأجسام الساقطة قد بين عظم سرعة حركة الاجسام ، وان قيل : ان سير المشتري هو بواسطة الجاذبية على ما هو مفصل في كتب أولئك القوم ، وكذلك سرعة الاجسام الساقطة ، قلنا : وما هي تلك الجاذبية التي ينسبون اليها أعمالا عظيمة في الكائنات ؟ وهم يمجزون عن الافصاح عن حقيقتها ، وعما هو الموجب لقيامها في الاجسام وغاية ما يكون منهم أنهم يقولون بها لتعمليل الحوادث التي حيرت عقولهم : من نحو النظام الشمسي أى دوران الكواكب حول الشمس وغيره ، وبعد تسليم ثبوتها نقول من الذي أوجدها وجعلها خاصة الاجسام وأنشأ عنها تلك الحوادث المظيمة في الكائنات ؟ أغير الاله الذي أبدع الخلق من المدم ، ووضعها على أنم نظام ، وأسمى حكم ؟ فإذا كان ذلك الاله قادرا على إيجاد مثل هذه الجاذبية ، واحداث حركات الأجسام السريعة عنها فلا يمجز أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات في مدة وجيزة : اما بخاصة وضعها فيه ، وأما بغير خاصة فالكل جائز عقلا ، وقدرته صالحة

لكلا الأمرين، وليعلم أن جميع ماقررناه في حق الملائكة يقال مثله في شأن الجن : من القدرة على التشكل ، والأعمال العظيمة ، وقطعهم المسافات الطويلة في برهة قليلة ، وعدم رؤيتنا لهم ، والاستدلال واحد لا يخفى على الفطن الذكي ، والله تعالى أعلم ، نقول : ومن هذا المقام تبين لك اندفاع الشبهة التي ترد على الاسراء والمعراج اللذين حصلنا لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والشبهة التي ترد على انتقال عرش بلقيس من بلاد اليمن إلى مجلس سليمان عليه السلام في لحظة طرف أما الاسراء والمعراج فقد ورد في القرآن الشريف ، أن الله تعالى أسرى بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في ليلة واحدة من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس ، وورد في الأحاديث الصحيحة التي بلغت بكثرتها درجة القطع بثبوتها أن الله تعالى أبعده في تلك الليلة إلى السموات العلى ، ثم أعاده إلى مكة في نفس تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر ، فيجب علينا الإيمان بذلك حتى أن كثيرا من العلماء يذكرون الاسراء والمعراج في جملة العقائد التي يجب الإيمان بها ، وإنما أخرنا ذكرها إلى هنا لبيان دفع الشبهة عنهما في مناسبة هذا المقام ، فنقول : حيث قد ظهر هنا أن سرعة الحركة الأجسام مهما بلغت القدر العظيم فهي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى فما المانع أن الله تعالى ينقل ذات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في ليلة واحدة من حرم مكة إلى حرم القدس ، ثم إلى السموات العلى ، ثم يعيده في تلك الليلة إلى مكة ، فنؤمن بوجود الله تعالى ، ويتبصر

في أعماله في هذه الاكوان ، ويعتقد أن سيدنا محمد رسول الله ، وقد أخبرنا بأنه قد حصل له ذلك الانتقال السريع في تلك المسافات ، وهو صادق معصوم عن الكذب : لا يتوقف بتصديق قصة الاسراء والمراج ، ويؤمن بذلك من دون تردد ، ولا يجده الا من الامور المجائزة الداخلة تحت تصرف قدرة ذلك الاله العظيم ، وأما من لم يكن مؤمنا بوجود الاله سبحانه وعظيم قدرته ، ولم يعتقد برسالة رسول الله فهذا الصواب في حقه أولا أن يرشد الى الايمان بالله تعالى ورسوله بواضح البرهان ، وبعد ذلك يسهل عليه تصديق نصوص الأحاديث والقرآن ، والله الموفق

وأما قصة مجيء عرش بلقيس من بلاد اليمن الى مجلس سليمان في لحظة طرف فقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم ، وأنها جرت على يد من عنده علم من الكتاب ، فبعض المفسرين قال : انه آصف ابن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام ، فيكون مجيء ذلك العرش كرامة أظهرها الله تعالى على يده ، لأنه من أولياء الله تعالى ، وبعضهم قال : انه نفس سليمان عليه السلام فيكون ذلك معجزة أظهرها الله تعالى على يديه اذ هي أمر خارق للعادة ، ومن تأمل في هذا المقام وظهر لديه أن سرعة حركة الأجسام مهما بلغت فهي من المجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : فلا يصعب عليه الايمان بهذه القصة ، والله على كل شيء قدير

الفصل الثالث

في رد الشبه عن بعض النصوص الشرعية
الواردة في الأمور الجوية كالمطر ونحوه

اعلم أن الآيات الواردة في القرآن الشريف في شأن المطر هي على قسمين ، منها ما ظاهره أن المطر ينزل من السماء ، ومنها ما ظاهره أنه ينزل من السحاب ، ثم إن السماء تطلق في اللغة العربية التي جاءت هذه الشريعة الإسلامية بها على عدة معان كما في قواميس تلك اللغة ، منها السماء التي هي مسكن الملائكة ، ومنها سقف كل شيء وكل بيت ، ومنها كل ما علا الشيء فهو سماؤه ، ومنها السحاب ، ومنها المطر ، وبناء على ما تقدم من وجود اعتمادنا على المعنى الظاهر المتبادر من النص ما لم يقدم دليل قاطع على خلافه علينا أن نعتقد المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور في إزال المطر ، وهو مسكن الملائكة كما هو المراد في كثير من الاستعمالات الشرعية ، ونوفق بين النصوص التي ظاهرها نزول المطر من السماء والتي ظاهرها نزوله من السحاب إن شاء تعالى ينزله من السماء على البخارات المجمعة في الجو المسماة بالبحاب . ثم ينزله منها إلى الأرض ، فتارة تذكر النصوص محل نزوله الأول ، وتارة تذكر محل نزوله الثاني ، والله أصدق القائلين ،

ونقل عن قطب المارقين سيدنا السيد أحمد الرفاعي قدس سره
العزيز في بيان هذا التوفيق أن المطر قسمان ، مطر ينزل من السماء
وهو الذي يكون بسببه خروج النبات ، ومطر يتكون من بخارات
الأرض وبحارها ويتصاعد إلى الجو ثم ينحدر من السحاب ، وهذا
لا يكون به الانبات ، وإن كان له حكم و. نافع الله أعلم بها ، ثم إذا ثبت
بالدليل العقلي القاطع ما يقوله الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون : من
أن المطر ليس إلا من بخارات الأرض وبحارها يتصاعد إلى الجو بسبب
الحرارة ثم ينمقد بسبب البرد سحابا ، ثم يتحلل مطرا ، وتحقيق ذلك
بدون ريب ساغ لنا حيث ذكرنا على . وجب القاعدة المتقدمة أن نزول
النصوص التي يتبادر منها أن المطر ينزل من السماء التي هي مسكن
الملائكة بأن المراد بالسماء في هذه النصوص هي ماعلانا وصار سقفا
لنا وهو السحاب كما هو أحد معانيها اللغوية ، وقد ذكر هذا التأويل
الإمام الرازي في تفسير سورة البقرة ، وأشار إليه الشيخ الشرنبلالي
في شرح « مراقى الفلاح » وأما يقال أنه لما كان نزول المطر بأسباب
سماوية من جماتها حرارة الشمس المرسله أشعتها إلينا من جهة السماء
فتثير وتبعد الأجزاء المائية من أعماق الأرض ومن البحار والأنهار
إلى جو الهواء فينمقد سحابا فيمطر كان الانزال من السحاب حقيقة
ومن السماء مجازا باعتبار السببية والله مسبب الأسباب ، وقد ذكر
هذا التأويل الشيخ السامعيل حقي في تفسير سورة النبأ ، وعلى كل

فقد اندفعت الشبهة ، ووافقت النصوص الشرعية حكم العقل والله تعالى أعلم

وإن قيل : ما حقيقة الرعد ، والبرق ، والصاعقة ؟ فإن الفلاسفة المتأخرين يقولون : إنها ناشئة عن عمل القوة الكهربائية المتكونة في السحاب وقاموا على ذلك في كتبهم الدلائل من نوع قياس الغائب على الشاهد ، قلنا : اختلف علماء الاسلام المتقدمون في ذلك ، فقال بعضهم : الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث شاء الله تعالى ، والصوت المسموع صوته ويسمى رعدا أيضا ، ويده مخاريق من نار ، يسوق بها السحاب ، والبرق ما ينقدح من تلك المخاريق ، وإذا اشتد غضبه طارت من فيه نار هي الصاعقة ، واستند أصحاب هذا القول الى حديث آحادي روى في ذلك ، وقال بعضهم : ان الرعد خالق من خلق الله تعالى ليس بملك ، وروى هذا عن الحسن ، أي البصري ، وقال بعضهم : ان الرعد ، والبرق ، والصاعقة تتولد من اضطراب أجرام السحاب واصطكا كما فينشأ هذا الصوت المسمى رعدا ، وينقدح ذلك اللمع المسمى برقاً ، والصاعقة قصفة رعد هائلة معها نار لا تأتي على شيء إلا أتت عليه بالهلاك ، وعبر البيضاوي عن هذا القول بأنه المشهور وأعلل مراده المشهور بين علماء المعقول ، إذا تقرر هذا فاعلم أن اختلاف العلماء في هذه الأشياء دليل على أن الحديث الذي استند إليه أصحاب القول الأول لم يصح عند الفريق الثاني الذين خالفوه ، وإلا لما

قالوا بغير مضمونه فيكون اعتقاد مضمون القول الأول ليس واجبا علينا كبقية العقائد الاسلامية ، إذ ليس النص الذي استند إليه من النصوص الثابت ورودها عن الرسول قطعا : كالتواتر ، والمشهور ، لكن الصواب عدم مخالفة الحديث وإن كل آحاديا ، وإذا لم يقدّم دليل قاطع على ثبوت خلافه فجميع ما ذكر فيه هو من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فما المانع أن يكون الله تعالى عظيم القدرة قد خلق ذلك الملك ، ووكله بتدبير أمر السحاب والأمطار وينشأ عنه تلك الحوادث من الصوت العظيم ، والبرق ، والصاعقة وأما إذا ثبت بالدليل العقلي القاطع أن تلك الحوادث الثلاث إنما هي من فعل الكهرباء فلنا حيثن تأويل نص ذلك الحديث الآحادي ، فنقول : لا مانع أن الله تعالى قد خلق ملكا ووكله في تدبير شئون الأمطار ، وتلك الحوادث الناشئة عن القوة الكهربائية التي لا بد فيها من حكم باهرة إنما مبدؤها بتدبير ذلك الملك وتصرفه في السحاب فأراد بالحديث إفادة أن شئون المطر وتلك الحوادث مرجعها ذات الملك مع تمثيل وتصوير عظمته ، فعبّر عن الرعد بصوته ، والبرق بلمعانه مخاريقه ، والصاعقة بشراقة فقه ، والمراد من جميع ذلك التمثيل والتصوير وهذا الأسلوب مستعمل في اللغة العربية يفهم أصحابها ما هو المقصود منه ، وورد نظيره في استعمالات الشرع الشريف ، فما ورد في كلام أهل اللغة العربية منه قول بعضهم : مدح رجلا :

ان السحابة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج
فانه من المعلوم أن السحابة والمروءة والندى هي معان لا يمكن
أن توضع في قبة مع المدوح ، وانما المراد تمثيل وتصوير ملازمة
ذلك المدوح لتلك الصفات الكريمة حتى كأنما ضربت عليها وعليه
قبة ، ومما ورد منه في استعمال الشرع الشريف قوله تعالى : «والأرض
جميعا قبضته يرم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » فانه قد يؤول
بأن المراد منه تمثيل وتصوير عظمة الله تعالى وقدرته وعظمته سلطانه
وإلا فهو سبحانه ليس مشابها للحوادث ، ويستحيل ملاصقته لها
بأن يقبض على الأرض ويأخذ السماوات بيمينه سبحانه وبهذا
يتضح التوفيق بين ذلك الحديث الأحادي وبين ما فرض ثبوته
بالدليل القاطع من كلام الفلاسفة المتأخرين ، والله تعالى أعلم

فان قيل قد ورد في القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى جعل
الكواكب زينة السماء الدنيا ، وجعلها حفظا من الشياطين ، ورجوما لهم ؛
لأنهم يصعدون الى قرب السماء لاستراق السمع من الملائكة ، ومن
المعلوم أن الملكيين يقولون بكبر كثير من الكواكب حتى ان منها ما هو
أكبر من الأرض بمرات ، وورد أيضا في بعض الآثار ما يدل على
كبر البعض منها ولو رجعت الشياطين بهذه الكواكب الكبيرة
لسقطت على الأرض وأضرتها ، ولذا كان يظهر التقص في الكواكب
المرئية على طول الزمان ، فإنا ليس المراد من النص القرآني أن

نفس الكواكب الكبيرة تكون رجوما حتى يلزم ذلك بل المراد كما قال الامام الرازي في تفسير سورة « الصافات » وتفسير سورة « الملك » أن تنفصل شعل من الكواكب ترجم بها الشياطين وغير الشهب التي نراها منقضة من جهة السماء ، أو أن الكواكب قسمان قسم منها الكبير الثابت الذي لا يتغير ولا ينقض ، وقسم منها الصغير الذي ينقض ويكون رجما للشياطين ، وهي هذه الشهب التي نراها منقضة

فان قيل : ان الفلكيين المتأخرين يقولون : ان الشهب أجسام صغيرة ساجدة في الفضاء تنجذب أحيانا إلى الأرض عند قربها منها وتنقض ملتهبة من سرعة الحركة ، قلنا : لم يقل النص القرآني ان كل شهاب فهو رجم للشياطين بل مفاده أن الكواكب رجوم للشياطين في الجملة فما المانع أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وأقامها في الفضاء وهي من جملة الكواكب ولكنها صغيرة ، فتارة تنقض إلى جهة الأرض بسبب جذب الأرض لها عند قربها منها ، وتارة يرسلها الله شهابا على الشياطين المسترقين للسمع ، فقد ظهر مصداق النص القرآني أن الله تعالى جعل النجوم زينة ورجوما فالزينة بكبارها والرجوم ببعض صغارها ، فالفلكيون ماعدوا غير ما دلتهم عليه أرواحهم ، ونحن قد علمنا أن من الكواكب ما يكون رجوما للشياطين وهو بعض تلك الأجسام الصغيرة ، وثبت عندنا ذلك بإخبار القرآن الشريف

الصادق ولا إشكال في ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم
فان قيل : اذا ثبت ما يقوله المالكيون من أن الأرض كرة قائمة
في الفضاء ليست مركوزة على شيء ، فما يقولون في الاثر المروي عن
بعض الصحابة أنه سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن الأرض فقال :
أها على قرن ثور والثور على صخرة والصخرة على ظهر الحوت
والحوت في بحر والبحر على الريح وتحت الريح ظلمة ، قلنا : هذا
الاثر ولو فرض نقله حديثا ليس آية قرآنية ولا حديثا متواترا
ولامشهورا حتى يجب الايمان به كبقية العقائد الاسلامية لعدم اليقين
بثبوته ، وعلى فرض ثبوته عن سيدنا عيسى عليه السلام فيمكن
تأويله بكونه من ضرب الأمثال ، وكثيرا ما ترد الرموز وضرب
الامثال في كلام سيدنا عيسى عليه السلام كما يعلم ذلك من تتبع المنقول
عنه ، والله أعلم

الفصل الرابع

في رد شبه شتى عن نصوص شرعية

اعلم أنه قد ورد في القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى خلق
آدم أبا البشر عليه السلام ابتداء من طين بدون أب ولا أم ، وورد
في سبحانه خلق زوجته حواء منه ، وقال بعض المفسرين : ان المعنى
أنه خلقها من جنسه ونوعه كما قال تعالى : وخلق لكم من أنفسكم أزواجا

وقال أكثر المفسرين : أنه خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى واستندوا في ذلك الى حديث آحادى ورد في ذلك ، وورد في القرآن أيضا أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى عليه السلام من السيدة مريم رضى الله تعالى عنها من دون أب ، قال علماء الاسلام : ان في خلق هؤلاء المذكورين بهذه الطرق مع خلق بقية البشر على الطريق المعتاد إشارة من الحق تعالى للعبادة على تمام قدرته بخلق الانسان على أى كيفية أراد ، فخلق آدم بدون ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى ، وخلق بقية البشر ذكورا وإناثا من ذكر وأنثى ، ومن يؤمن بوجود الله تعالى وبكمال قدرته ويتصور ما أبدعه من الحيوانات والنباتات من التراب لا يصعب عليه الايمان بخلق آدم ، وحواء ، وعيسى بالكيفات المذكورة ، إذ لا دليل على استحالة شىء من ذلك ، وقد أخبر به الصادق ، وما يقوله بعض التأخرين من الفلاسفة في حق الانسان وبقية الحيوانات : من أنها تولدت من عناصر الارض ثم اشتق بمضها من بعض بتفاصيل مستطيلة ، ويسمون قولهم هذا مذهب النشوء فهو قول مبني على الظنون والالوهام ، لا مستند له في باب اليقين ، كما أوضحت ذلك في « الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية » فليُنظر هناك ، فلا داعي لنا الى تأويل النص الوارد في خلق آدم من تراب كما يعلم من القاعدة التي تقدم تقريرها من أنه لا يسوغ لنا تأويل النص الشرعى إلا اذا قام الدلائل المقاطع على ابتاوض المعنى

المتبادر منه ، وعلى فرض قيام الدليل القاطع على مايقوله هؤلاء الفلاسفة فيمكن تأويل هذا النص في خلق آدم وحواء بتأويلات مناسبة كما بيته في « الرسالة الحميدية » أيضا فارجع اليه : وأما من لم يكن مؤمنا بالله تعالى ، وعظيم قدرته فهذا الصواب في حقه كما تقدم صرارا اقامة الشواهد له حتى يصير مؤمنا بالله تعالى ، وبعد ذلك يتضح له صدق تلك النصوص ، والله أعلم

كذلك قد ورد في القرآن الشريف في قصة أهل الكهف مايفيد أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين ، وجاء شرح قصتهم في الاحاديث الشريفة أنهم أشخاص مؤمنون على دين سيدنا عيسى المسيح ، خافوا من إجبار ملئهم لهم على الكفر وعبادة الاوثان فاختبؤا في ذلك الكهف ، وأرسل الله عليهم النوم وحفظ حياتهم تلك المدة ، ثم بعد يقظتهم عادوا فناموا وسد عليهم القوم الذين اطلعوا عليهم باب الكهف ، فهذا الحال من الجائزات العقلية اذ لا مانع من أن الله تعالى يحفظ حياة النائم سنين عديدة ، فان الغذاء ما هو الاسباب عادية في حفظ الحياة والله تعالى قادر على حفظها بدون الغذاء ، وقد يوجد في الحيوانات لاسيما من نوع الحيات ماينام تحت التراب مدة الشتاء لا يأكل ولا يشرب ويحفظ الله تعالى عليه حياته تلك المدة ، كما أن بعض الباحثين عن طبقات الارض : إن بعض الحيوانات بعد خيرة قد تنمذ تحت التراب الوغام من السنين وهي محفوظة الحياة

واستشهد على ذلك ببعض ما اكتشفوه ، ولا يلزم من وجود أهل الكهف الآن أن يطلع عليهم الباحثون عن الآثار القديمة ، فكم من البقاع لم يصلوا إليها ولم تظأها أقدامهم ولم يرد حديث صحيح بتعيين مكانهم ، والله تعالى أعلم

وكذلك قد ورد في نصوص القرآن الشريف ، وفي أحاديث كثيرة ما يدل على أن الرؤيا المنامية قد تدل على أمور تحدث في اليقظة . أما صراحة ، وأما بنوع إشارة تحتاج للتفسير ، قال العلماء ان الرؤيا المنامية هي تصورات فكرية تحدث في ذهن النائم على أنواع ، منها ما سببه بخارات الطعام ، ومنها ما سببه تفكر الانسان في أشياء حالة اليقظة فيراها أو يرى ما يناسبها في حالة النوم ، ومنها ما سببه من الشيطان لأجل غرور الناس ، أو ادخال الحزن عليه ، أو نحو ذلك من مقاصده الخبيثة ، ومنها ما يكون من جانب الله تعالى تبشيرا للعباد أو تحذيرا ، أو غير ذلك : إما صراحة ، وإما إشارة ، وهذا القسم بنوعيه هو الذي ورد في الشريعة أنه جزء من الوحي ، وكل هذه الأقسام جائزة لا تستلزم محالا عقليا ، وللقسم الأخير شواهد كثيرة تنقل في التواريخ القديمة الى هذا الزمان ، ونظن انه قل أن يخلو شخص من حصول شيء له من ذلك في مدة عمره ، ولكن يوجد في فلاسفة هذا العصر من ينكر هذا النوع الأخير من الرؤيا وينكر دلائلها على شيء في اليقظة بدون دليل منه على استحاطته أو عدم وجوده ، وإذا

قل إليه بعض الشواهد التي حدثت لبعض الناس من هذا النوع
يؤدل ذلك الشاهد بتأويلات واهية سخيفة ، قالذي نعتقه أن دلالة
هذا النوع من الرؤيا على أمور تحدث في اليقظة هو أمر جائز عقلا
وقد أخبرت بوقوعه نصوص الشريعة فنؤمن به ونصدق
كذلك قد ورد في بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية
ما يفيد أن للسحر حقيقة وآثارا في الخارج ، قال العلماء : إن من
السحر ما يوجد له حقيقة وآثار في الخارج مثل قلب بعض صور
الحيوان إلى صورة أخرى ، وقتل الحيوان والاضرار ببعض الاجساد
وذلك ناشئ إما عن خاصية في نفس الساحر خصه الله تعالى بها
أو عن استعمال الساحر بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ما يحدث
من آثار ذلك في الخارج فهو بمحض خلق الله تعالى ، وتلك الخاصية
في الساحر واستعماله بعض الرقى والعزائم ما هو إلا من الأسباب
العادية التي جرت عادة الله تعالى في إحداث مسبباتها عندها ، وليس
الساحر خالفاً لشيء من تلك الآثار ، ومن السحر ما لا أثر له
في الخارج حقيقة وإنما يحدث عنه في نظر الرائي وفكره صور وهمية
متخيلة يظن الرائي أن لها وجودا في الخارج والحال ليس كذلك ،
وتلك الصور الخيالية تحدث إما بواسطة أعمال كسبوية ، أو باستعمال
التوأميس الطبيعية كنواميس النور ، فيرى الإنسان أثرا في الخارج

لا حقيقة له فيه واما بوسائل أخرى كسرعة العمل وغير ذلك ، قال أهل السنة والجماعة : لا مانع أن الله تعالى يوجد في بعض النفوس خاصة التأثير بالأجسام وقلب صورها واحداث الاضرار ونحو ذلك ، أو يحدث ذلك عند استعمال بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ذلك بمخلق الله تعالى وجعله تلك الخاصة والرقى والعزائم اسبابا عادية تحدث عندها تلك الآثار كما لا مانع من خلق الله تعالى تلك الصور الخيالية المتوهمة التي لا حقيقة لها في الخارج عند استعمال بعض النواميس التي تنشأ تلك الصور عنها ، وإن قيل : لو جوزنا وقوع السحر يلزم اشتباه الساحر بالرسول الذي يأتي بالمعجزة ، قلنا : إن الرسول يدعى الرسالة من عند الله تعالى ، ويصدق الله تعالى بإظهار المعجزة على يديه ، والساحر لا يدعى الرسالة وإن أراد ادعاءها فمن حكمة الله تعالى أن لا يظهر الامر الخارق للعادة على يديه ، أو أنه إن ادعى الرسالة كان من حكمة الله تعالى أن يطلع بعض من يدعى بينهم على حقيقة أعماله السحرية فلا يلتبس عليهم الحال بالمعجزة كما قال الرازي في حكمة تعلم المسكين الناس السحر ، وقد نقلناه فيما تقدم ، فهذا يكون الفارق بين المعجزة والسحر ، فإن قيل : إن الفلاسفة المتأخرين أنكروا وجود السحر من النوع الأول ، وهو أن يكون على يد الساحر ظهور بعض الحقائق من قلوب الصور والاضرار بالغير بواسطة خاصية بنفسه أو استعمال بعض الرقى

والمزائم ، واحتجوا على ذلك بأنه لا يظهر في العقل ارتباط بين تلك
الوسائل وظهور تلك الحقائق في الخارج ، وبأن في جميع ما اكتشفناه
من حقيقة حال السحرة في هذا الزمان أن جميع ما يظهر على أيديهم
هي صور وخيالات لا حقيقة لها في الخارج ، وهي تحدث على
أيديهم بواسطة استعمال بعض النواميس ، أو بواسطة خفة اليد وسرعة
العمل ، وكثير من السحرة من أقر بأن ما يظهره لايمان ما هو
إلا صورة خيالية لا حقيقة لها ، قلنا أنا مشر أهل السنة نقول
أن عدم ظهور ارتباط بين تلك الوسائل وهي خاصية النفس واستعمال
الرقى والمزائم وبين ظهور تلك الحقائق في الخارج لا يلزم منه عدم
وجوده في نفس الأمر ، فربما يكون ذلك الارتباط موجودا وهم
لم يطلعوا عليه لا سيما وأمر السحر شيء خفي ووجود السحرة قليل
وفي أزمنة متباعدة ، وهذا المغناطيس لاشك أنه يجذب الحديد ومع
ذلك لم يطلع هؤلاء القوم على حقيقة السبب الذي به توجد هذه
الخاصية ولم كان يجذب الحديد دون غيره ؟ غاية ما يقولونه : أن
تركيب أجزاء المغناطيس يقتضي ذلك ، وهذا ادعاء لسبب يحمل غير
واضح ولا مقنع للعقل فيه ، على أننا نقول : أن وجود تلك الحقائق
على يد الساحر بمحض خلق الله تعالى وهذا لا مانع منه سواء كان
هناك سبب ، وجب أو لم يكن ، وأما قولهم : أننا في جميع ما اكتشفناه
من حقيقة حال السحرة في هذا الزمان قد اتضح لدينا أن جميع

ما يظهر على أيديهم منه هي صور و خيالات لا حقيقة لها في الخارج
فنعقول أولا . لا نسلم أنهم أطلعوا على أحوال كل ساحر في هذا
الزمان ، وثانيا لا مانع أن يكون النوع الأول من السحر قد فقد
من العالم كما فقدت عدة علوم وبقى النوع الثاني فقط الذي اطلعوا
عليه ، ونحن لا نقول بوجود النوع الأول دائما حتى في هذا الزمان
بل في نفس الأمر وهو عزز الوجود ولا يوجد صاحبه إلا
في أزمنة متطاولة ، فلما يخص أنا معشر أهل السنة نقول بوجود
السحر لا سيما في الأزمنة الغابرة كما جاءت بذلك النصوص وبأن
آثاره ببعض خلق الله تعالى وإن لم نطالع على وجود شيء منه في هذا
الزمان ، والله أعلم

كذلك قد ورد في بعض الأحاديث الأحادية أن بعض الأئمة
تأثير في سقم بعض الأجسام واضرارها ، وحمل عليه بعض المفسرين
تفسير بعض الآيات ، وقد أنكر هذا بعض الفلاسفة المتأخرين
والمتقدمين ، قالوا : كيف يعمل أن العين تعمل من بعد وتؤثر في الأجسام
بالأسقام والاضرار ؟ ونحن نقول : إن ذلك من الجائزات العقابة
وحقيقة ذلك التأثير بخلق الله تعالى ، والعين سبب عادي . وإذا أريد
بيان ذلك التأثير عقلا ، فنقول : إن الناس مختلفون في خواصهم كما
يكون الاختلاف بين أصناف الحيوانات فما المانع من أن يكون في الناس
ذو طبيعة في نفسه ذات سم دضر ، فإذا نظر شيئا بعينه وأعجبه وتوجه

بنفسه اليه انفصل من عينه في الهواء مادة سامة اذا وصلت الى المرئ
أضرت به ، وأى مانع من انفصال مادة من العين عند الانفعالات
النفسية كما تنفصل منها الدموع عند ذلك ، وقد قال بعض المتكلمين
على خواص الحيوانات ان من الأفاعي ما ينظر إلى الانسان فيموت
بنظره ، وما يصوت فيموت السامع بصوته ، واذا صح هذا فذلك
الأفعى لم يكن قتلها من بعد إلا بواسطة سم ينفصل عنها ويصل
إلى الانسان ، ومن نظر الى المغناطيس وتأثيره بالحديد من بعد
لا يستغرب تأثير العين في الأجسام من بعد ، وهذا الذى ذكره من
تأثير العين في سقم الأجسام واضرارها هو الذى ثبت فى الأحاديث ،
وأما ما ينقل من أن العين تهدم المباني العظيمة وتشق الجبال الكبيرة
وأمثال ذلك فهو شئ منقول فى القصص والأخبار الشائعة بين
الناس ، وإذا لم يصح فى نقول الشريعة الصحيحة فلا يعتمد عليه ،
والمخلص أنا نقول بجواز تأثير العين فى الأجسام بالاسقام والأضرار
ووجود ذلك بخلق الله تعالى لورود النص بذلك ولا مانع منه عقلا ،
ولا يستلزم محالا ، والله تعالى أعلم

وكذلك قد ورد النص فى بعض الأحاديث الأحادية أن
الطاعون من وخز الجن ، والذى يقوله الأطباء : ان مرض الطاعون
من فساد الدم الناشئ من فساد الهواء فنقول : اذا تحقق ما يقوله
الأطباء يمكن أن يقال : ان السبب الاصلى فى الطاعون هو تسلط

الله تعالى الجن على بنى آدم بافساد هوائهم ودمهم فيتولد عن ذلك تلك الغدد الطاعونية ، فالنص الشرعى أخبر بالسبب الاصلى وكفى عنه بوخز الجن ، والاطباء اطلعوا على السبب الاخير فقالوا بما اطلعوا عليه ولا اشكال فى ذلك ، والله اعلم

وان قيل قد جاء فى حديث آحادى أنه عليه السلام قال : « لا يوردن ذو عاهة على مصحح » وقال : « فر من المجدوم فرارك من الاسد » وجاء فى حديث آخر أنه عليه السلام قال : « لا عدوى » فما التوفيق بينهما ؟ قلنا من المعلوم أن اعتقاد أهل الاسلام أنه لا تأثير لشيء بطبعه بل كل أثر فهو بخلق الله تعالى ، وإنما قد أوجد الله أسبابا عادية للآثار والله قادر على تخلف تلك الآثار عن أسبابها ، وأن العمر محتوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يصيب الانسان الا ما قدر عليه ، فلا يجوز للانسان أن يعتقد أن المرض الفلانى يؤثر بطبعه ويمدى غير صاحبه ، وأن الانسان قد يمدى بالمرض ويموت قبل أجله الذى قدره الله له ، اذا ققرر ذلك فنقول : يمكن — والله أعلم — بمراد رسوله أن المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى » أنه لا يجوز اعتقاد العدوى بتأثير الأمراض بطبيعتها وامانة الانسان قبل أجله . ولكن قد توجد فى بعض الأمراض مثل الجذام والجدرى والسل وأمثال ذلك رائحة كريهة ومادة سامة تنفصل من صاحبها ربما تكون سببا عاديا لحدوث المرض فيمن يخالطه ويقاربه فيمكن حينئذ — والله أعلم — أن يكون

هذا هو المعنى الذى أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله « لا يوردن ذواته على مصحح » وقوله : « فر من المجدوم فرارك من الأسد » فكما أن شدة البرد وشدة الحرارة والتخمة وأمثال ذلك تكون سببا للمرض كذلك تلك الرائحة الحبيثة والمادة السامة التى تنفصل من المريض قد تكون سببا عاديا لمرض الصحيح المخالط له ، فإذا تجنب المرء أصحاب تلك الأمراض تحاشيا عن الأسباب العادية مع اعتقاده أن تلك الأمراض ليست مؤثرة بطبيعتها ، وأن تحاشيه لا يكون مانعا لقدر الله تعالى ، ولا مطيلا له عمرا فلا مانع من ذلك التحاشي مع مراعاة تلك الشروط لصحة الاعتقاد ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطاعون : « إذا كان فى البلد الذى أنتم فيه فلا تخرجوا منه » وقال أيضا : « إذا كان فى بلد فلا تدخلوه » قال بعض العلماء يريد بقوله : « لا تخرجوا منه » إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم ، ويريد بقوله : « وإذا كان فى بلد فلا تدخلوه » أن مقامكم فى البلد الذى لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم ، وأطيب لعيشكم ، ومع ذلك الإنسان أن يخالط أصحاب الأمراض اتكالا على الله وثقة به تعالى : لأن حصول الضرر بمخالطهم غير مقطوع به ، وقد ورد « أنه عليه الصلاة والسلام » كل مع مجذوم فى اناء واحد وقال « ربه » فى الآمال فى هذا المقام يظهر التوفيق بين الأحاديث الشرعية ، ولعلم اعتقاد المسلمين فى مسألة العدوى ، والله تعالى أعلم

وان قيل : قد ورد في حديث آحادى ما مفاده أن الله تعالى قد جعل ملكا موكلًا بعروق الارض فإذا أراد الله زلزلة جهة من الأرض أمر ذلك الملك فحرك عروق تلك الجهة فتحدث فيها الزلزلة، والفلاسفة يقولون : ان الزلزلة تحدث من احتباس أبخرة أو مياه في جوف الأرض وتنضغط بالحرارة وليس لها منفذ الى ظاهر الأرض فيحدث عنها تلك الحركة العنيفة المسماة بالزلزلة، قلنا الذى ورد في الحديث لا مانع منه عقلا، ولكن اذا ثبت بالدليل القاطع ما يقوله الفلاسفة يمكن تأويل ذلك الحديث بأن الله تعالى جعل ذلك الملك موكلًا بتدبير الأبخرة والمياه التى في جوف الأرض، وقد كنى في الحديث عن ذلك بأنه موكل بعروق الارض، فإذا أراد الله تعالى زلزلة جهة أمر ذلك الملك فساط الأبخرة والمياه وضغطها بالحرارة في جوف تلك الجهة فتحصل الزلزلة، فعبّر عن ذلك في الحديث بأنه يحرك عروق تلك الجهة، ولا مانع من الكناية لصعوبة الفهم على العامة أن الأبخرة تحرك الارض المظيمة والله تعالى أعلم

إن قيل: قد توجد آثار في بعض الكتب في كبر أجسام المتقدمين تحتوى على مبالغات يستبعدها العقل، وهي وإن لم تكن مستحيلة عقلا لكن قد اكتشف الباحثون عن الآثار الارضية على أجسام محنطة من تاريخ أربعة آلاف سنة فوجدوها مثل أجسام أهل هذا الزمان، فما تقولون في ذلك؟ قلنا ان الذى ثبت في هذا الباب أن الله

تعالى ذكر من قبلنا ، فقال : « كانوا أشد منكم قوة » وقال عن طالوت : « وزاده بسطة في العلم والجسم » وقال في تقرير بعض المتقدمين « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » وكل ذلك لا إشكال فيه ولا يعارضه اكتشاف ولا غيره : وأما ما شاع من قصة عوج بن عنق والمبالغة في كبر جسمه ، وكذلك « أينقل أن آدم عليه السلام كان رأسه يصل السحاب والسماء يحاكها فاعتراه الصلع من ذلك » فقد قال الإمام ابن قتيبة في شرح الأحاديث المشككة أن هذا شيء لم يأت به كتاب ، ولا ثقة ، وليس له اسناد ، وقال الإمام ابن فورك في شرح الأحاديث المتشابهة ، عن الروايات في طول آدم وقامته أنها مما لا يوثق به ؛ إذ ليس في ذلك خبر صحيح ، ولم يثبت أنه قد كانت خلقة آدم على خلاف هذه الخلقة عن الحد الزائد الذي يخرج عن المعمود من متعارف خلق البشر ، نقول : لكن يعارض كلام ابن فورك ما جاء في حديث البخاري الصحيح من أن طول آدم كان ستين ذراعا وأنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، فالتحقيق أنه على فرض ثبوت أحاديث في كبر أجسام المتقدمين فيمكن جعلها على أنهم كانوا أكبر أجساما من أهل هذه الأزمنة بآثار خال عن المبالغة كالستين ذراعا في خلق آدم ، وأنه من المحتمل أن الأجسام أخذت تصغر في زمنة متطاولة لأسباب عادية حتى بلغت مقدار هذه الأجسام البهيفة الآن ، ولئني اكتشفه الباحثون عن الآثار الأرضية أن أجسادهم بعد أن وصلت

الاجسام في الصغر الى هذا القدر ، وما تعنيه الاحاديث التي فرض
صحتها هو في اجسام اهل ازمئة قديمة جداً ، ومثل هذا يقال في طول
اعمار المتقدمين ، فانه قد ورد في القرآن أن نوحا لبث في قومه ائف
سنة إلا خمسين عاماً ، وورد في الاحاديث أن آدم عليه السلام عاش
ألف سنة ، وهذا أمر ممكن عقلاً لا استحالة فيه ، ومن الجائز أن
اعمار البشر كانت تطول ثم أخذت تتناقص كما نافست اجسامهم
حتى بلغت هذا الحد المعلوم ، والله تعالى أعلم

الخاتمة

نسأل الله حسن الخاتمة

لأعلم أنه يجب على المسلمين شريعاً نصب إمام يقوم بإقامة الحدود
وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش ، وأخذ الصدقات ، وقهر المتغلبة ،
والمتخصصة ، وقطاع الطريق ، وتزويج الصغار والصفائر الذين لا أولياء
لهم ، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد ، وقبول الشهادات القائمة على
الحقوق ، وإقامة الجمع ، والاعياد ، ولا يتم جميع ذلك بين المسلمين
إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم : يدرأ المفاسد ، ويحفظ المصالح ،
ويمنع مما تسارع إليه الطباع ، وتتنازع عليه الأطماع ، يعول الناس
عليه ، ويصدرون عن أيه على مقتضى أمره ونهيه ، وقد أجمعت
الصحابة رضي الله تعالى عنهم على نصب الإمام بعد وفاته عليه الصلاة

والسلام ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه « لا بد لهذا الامر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، فقالوا من كل جانب صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى إمام ، ويجب طاعة الامام على جميع الرعايا ظاهرا وباطنا فيما لا يخالف الشرع الشريف لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » وم العدا ، والامراء ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « من أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصا أميرى فقد عصانى » وفى صحيح البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ، وانما الامام جنة يقاتل من ورائه ، ويتقى به »

وبما ينبغي نصرة الامام على أعداء الدين والمفسدين ومحبة ونصحه والدعاء له بالصالح والتوفيق ، الرشاد ، والنصر والساداد فان فى صلاحه صلاح الامة ، وقد قال بعض السلف ما معناه : لو أعطيت من الله دعوة سالحة لجمعتها فى الخيرية

فسألت لهم وتوسلت اليك عظيمة ذات العانية ، وصفاتك السمية ، وبأسمائك السنية ، وبروحانية سيدنا محمد خير البرية ، أن تحفظ وتصر وتؤيد وتوفق حضرة مولانا محمد المصطفى ، ومديقه رسول رب العالمين ، مولانا « سلطان الأعظم » ، والخيالى « السيد » ، سلطان سلاطين العرب والعجم . وظال الله على صنوى « السيد » سلطان ، ابن السلطان ،

السلطان الغازي «عبد الحميد» خان، ابن السلطان الغازي عبد المجيد خان،
ابن السلطان الغازي محمود خان : أيد الله خلافته إلى آخر الدوران ، فهو
الحامي حوذة الملك والدين ، والناهض بهذه الأمة إلى أسمى شرف
مكن ، وإن من حسنات عصره السعيد ، جمع هذا الكتاب المفيد
المسمى «بالحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية» إذ هو
طبق رضائه العالي ، واثر إحسانه المتوالي ، جعله الله تعالى خالصا
لوجهه الكريم ، ووسيلة لافوز بجنات النعيم ، اللهم آمين ، وصلى الله
تعالى وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ،
والحمد لله رب العالمين ، آمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والسلامة والسلام على أشرف الأنبياء
 والمرسلين ، وعلى آله ، وأصحابه وسائر الصالحين
«أما بعد» فإن كتاب «الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد
الإسلامية» من أبدع ما أخرج للناس في فن الرحيد . ولا عجب فهو
من آثار ذلك الإمام الجليل . والعالم الشهير . الإمام «سيد حسين
أفندي الجسر الطرابلسي طيب الله ثراه

بيد أنه قد لعبت به أيدي التحريف والتصحيف ، وسحرهم
 حضرة الهمام الحاج مصطفى أفندي محمد بنشره في حلة تتناسب مع نقاسة
 الكتاب وجلالة مؤلفه ، وعهد إلينا بممارضته بأصوله وتصحيحه ،
 فوفى الله تعالى لعدة نسخ مختلفة الطبع وزمانه ، ومنها نسخة نشرت
 في عهد المؤلف ، فهذبته جهد الطاقة ، ولم كنت حريصا على خلوه
 من الغلط ، ولكن فرط منى أغلوطة واحدة نرشدك إلى صوابها
 فيما يلي ، إسداء للنصيحة ، وأداء للأمانة ، والعصمة لله وحده
 وما هو الكتاب يتهدى إليك اقترابا ، ويهدي من معانيه
 كراعب أترابا ، فنزفه للمسلمين ، وجماعة الموحدين ، في مشارق
 الأرض ومغاربها ولا عطر بمدحروس

رضوانه محمد

٩ صفر سنة ١٣٥١
 ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢

« تصويب »

| | | |
|-----|-----|---|
| ص | سطر | |
| ١٢٨ | ١٣ | « واتبعوا ما تملو الشياطين على ملك سليمان |
| | | وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » |

فهرست « الحصون الحميدية »

للسيد حسين افندى الجسر الطرابلسى

- ٢ فاتحة الكتاب ، سبب تأليفه
- ٧ } المقدمة وفيها أربعة مباحث : -
 } المبحث الأول فى تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله ،
 وافترض تعلمه
- ٨ المبحث الثانى فى حقيقة الايمان ، والاسلام
- ٩ المبحث الثالث فى بيان ما اعتبره الشرع متافيا للايمان
- ١٠ المبحث الرابع فى أحكام الوجوب ، والاستحالة ، والجواز
- الباب الأول فى بيان الايمان بالله تعالى ، وبيان اعتقاد أهل
 السنة ، وفيه فصول : - ١٤
- الفصل الاول فى تعريف الايمان بالله تعالى
- ١٥ الفصل الثانى فى بيان الصفات التى يجب لله تعالى تفصيلا ،
 وأضدادها ، ودلائل ذلك
- ٣٣ الفصل الثالث فى بيان الصفات التى تتعلق به الى لا تتعلق ،
 ومعنى ذلك التعلق
- ٣٧ الفصل الرابع فى بيان أنه يجب أن يعتد بجميع صفاته تعالى ،
 ونسائه ، وبيان أن أسماءه فوقية

١٥٧ الباب الثالث في رد شبه عن نصوص شرعية تعتمد في الاعتقاد ،

أو التوفيق بينها وبين ما يثبت بالدليل العقلي

مناقضا لظواهرها ، وفيه فصول : —

١٦٣ الفصل الأول في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة

في السماويات ، والأرضيات ، أو التوفيق بينها

وبين ما قام عليه الدليل العقلي ، مناقضا لظواهرها

١٧٦ الفصل الثاني في رد الشبه عن النصوص الواردة في شؤون

الملائكة ، والجن

١٨٣ الفصل الثالث في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة

في الأمور الجوية : كالطير ونحوه

١٨٩ الفصل الرابع في رد شبه شتى عن نصوص شرعية : كرد

شبه خلق آدم ، وحواء ، وعيسى صلوات الله عليهم ،

وشبه لبث أهل الكهف في كهفهم ثمانمائة وتسع سنين ،

وشبه دلالة الرؤية المنامية على أمور تحدث في اليقظة ،

وغير ذلك

٢٠٢ خاتمة في وجوب نصب خليفة للقيام بأمر الإسلام والمسلمين

٣٨ الفصل الخامس في كيفية اعتقاد أهل السنة فيما ورد في نصوص

الشريعة الفراء مما يوم التشبيه والمثالة

للحوادث ، وطريق تأويله عند الحاجة

٤٣ الفصل السادس في بيان ما يجوز في حق الله تعالى ، وبيان طرف

من ذلك

الباب الثاني في بيان الايمان بالرسول ، والأنبياء ، والملائكة ،

والكتب ، واليوم الآخر ، وما يتبع ذلك ، وفيه

فصول : —

٤٨ الفصل الاول في بيان الايمان بالرسول ، والأنبياء صلوات

الله وسلامه عليهم ، وما يجب لهم ، وما يستحيل

عليهم ، وما يجوز في حقهم

٥٣ الفصل الثاني في شرح معجزات الرسول عليهم الصلاة والسلام ،

وبيان طريق وقوعها ، وإقامة الحجج بها

٧٣ الفصل الثالث في بيان معجزات نبينا محمد صلوات الله عليه ، وطرف

من الطرق التي كانت برهاناً على صدق دعواه

١٢٧ الفصل الرابع في بيان الايمان بالملائكة ، والايمان بالسكيب

المنزلة على الرسول ، والقضاء والقدر

١٣٤ الفصل الخامس في الايمان باليوم الآخر وما يستعمل فيه ،

وبالبعث وما يتقدمه : من أحوال الموت ،

والقبر ، وما تبع ذلك